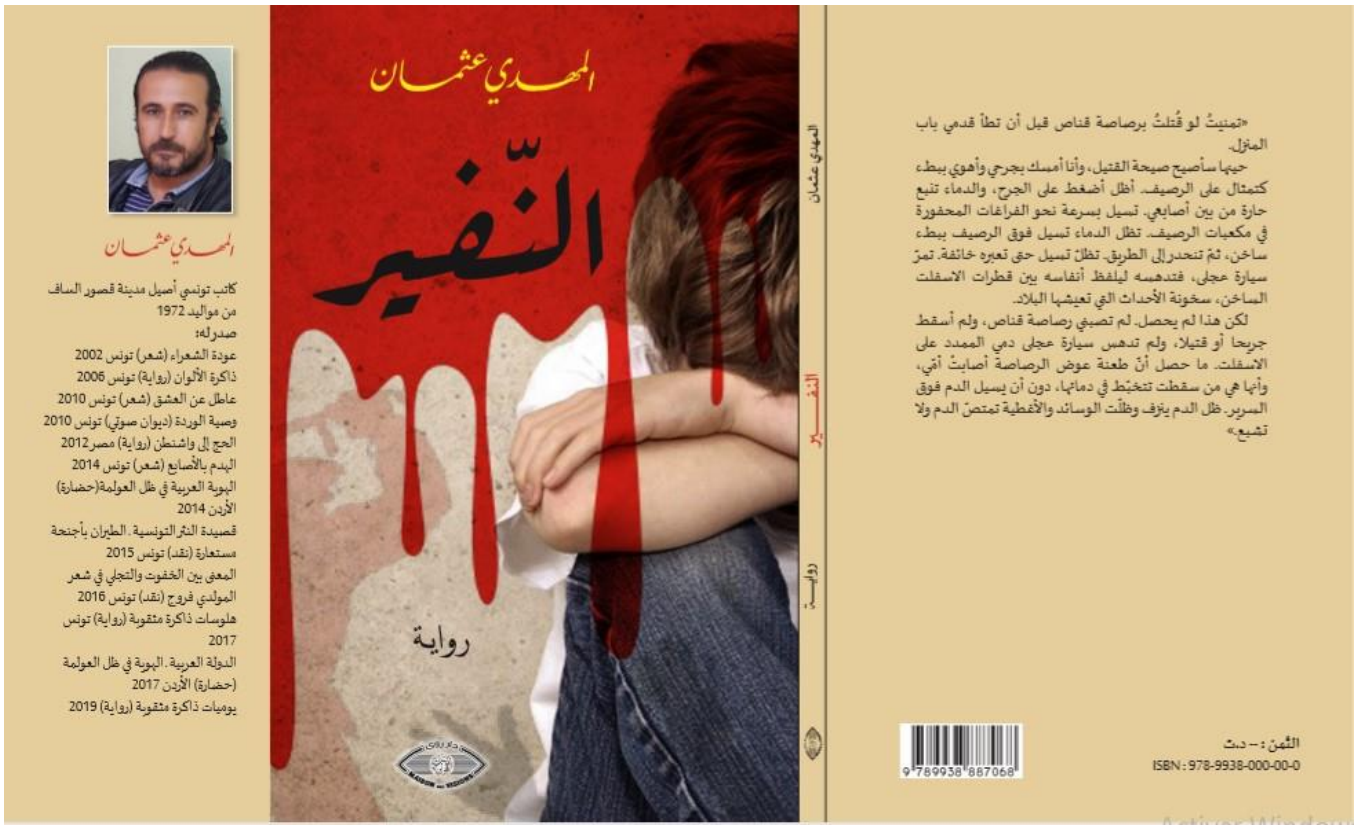

المهدي عثمان

النّفير

رواية

«تمنيتُ لو قُتلتُ برصاصة قناص قبل أن تطأ قدمي باب المنزل.

حينها سأصيح صيحة القتيل، وأنا أمسك بجرحي وأهوي ببطء كتمثال على الرصيف. أظل أضغط على الجرح، والدماء تنبع حارة من بين أصابعي. تسيل بسرعة نحو الفراغات المحفورة في مكعبات الرصيف. تظل الدماء تسيل فوق الرصيف ببطء ساخن، ثمّ تنحدر إلى الطريق. تظلّ تسيل حتى تعبره خائفة. تمرّ سيارة عجلى، فتدهسه ليلفظ أنفاسه بين قطرات الاسفلت الساخن، سخونة الأحداث التي تعيشها البلاد.

لكن هذا لم يحصل. لم تصبني رصاصة قناص، ولم أسقط جريحا أو قتيلا، ولم تدهس سيارة عجلى دمي الممدد على الاسفلت. ما حصل أنّ طعنة عوض الرصاصة أصابتْ أمّي، وأنها هي من سقطت تتخبّط في دمائها، دون أن يسيل الدم فوق السرير. ظل الدم ينزف وظلّت الوسائد والأغطية تمتصّ الدم ولا تشبع»

الثمن : ـــ د.ت
ISBN : 978-9938-000-00-0

المهدي عثمان

كاتب تونسي أصيل مدينة قصور الساف
من مواليد 1972
صدرله:
عودة الشعراء (شعر) تونس 2002
ذاكرة الألوان (رواية) تونس 2006
عاطل عن العشق (شعر) تونس 2010
وصية الوردة (ديوان صوتي) تونس 2010
الحج إلى واشنطن (رواية) مصر 2012
الهدم بالأصابع (شعر) تونس 2014
الهوية العربية في ظل العولمة (حضارة) الأردن 2014
قصيدة النثر التونسية . الطيران بأجنحة مستعارة (نقد) تونس 2015
المعنى بين الخفوت والتجلي في شعر المولدي فروج (نقد) تونس 2016
هلوسات ذاكرة مثقوبة (رواية) تونس 2017
الدولة العربية . الهوية في ظل العولمة (حضارة) الأردن 2017
يوميات ذاكرة مثقوبة (رواية) 2019

المهدي عثمان

الـنّفير

(رواية)

الإهداء

إلى أصدقائي...

إلى جاسر وسارة، مرآتي وسط الضباب

إليّ كلما كنتُ متعبا...

(1)

أفاقتْ على صياح الديكة وهديل الحمام المتثائب فوق بيوت من قصدير رُتّبتْ دون عناية على جدران المنزل.. تقلّبتْ فوق السرير على جنبها الأيسر لتسْحب جسَدها من تحت الغطاء. وبحركة روتينية تدلّت مباشرة فوق شبشبها، وقد تحسّسته بأصابع رجليها.

لن تنسى أن تكون الرجل اليمنى هيّ الأولى. كانت أمها تقول لها دائما "الرجل اليمنى فيها البركة".

وهي تُعين جسدها على الانتصاب، كانت تُرسل في ذات الوقت يدها اليمنى تُضيء بها طريقها إلى الجدار حيث يَغفو زرّ المصباح الجانبيّ الصغير. حين أدركته ضغطت عليه فجاءت الإنارة خافتة.. هذا ما تريده حتى لا يستيقظ عبد الله من نومه.

خرجت إلى صَحن الدار.. كان القمر يَرعى أرض الله الواسعة، ويُنير المكان.. بانَت إنارة تشوبها قطرات من الندى الشفاف.

أطلّت على محيط البئر وألقت السطل فيه.. خضّته خضات خفيفة فيها الكثير من الصنعة، ثم سَحبت الحبل، حتى بان السطل، فوضعته على جانب البئر، ثمّ دفعت قطعة قصدير دائرية غطّت بها فوهته وشرعت في الوضوء بماء بارد ينعش القلب وأطراف البدن الدافئ... تعوّدتْ عائشة أن تتوضأ بماء البئر الأكثر نقاء من ماء الحنفية، لذلك فهي تستعمله في أغلب شؤونها. في الشتاء يكون دافئا، ويكون باردا في الصيف. برودة طبيعية غير تلك البرودة التي تَجود بها الثلاجات.

هذا البئر حفره والدها مستعينا بزوجها ذات صيف لا يُنسى. صيف قلّ فيه الماء، حتى أوشك أن يجف من الحنفيات القليلة الموزّعة على الميسورين. تواصل الحفر لأسبوع كامل دون توقّف، إلى أن فاض الماء مدرارا من تحت أجلاف الصخر الصلد. كان يوما حافلا لا يشبه كل الأيام الأخرى. كانت تقول بينها وبين نفسها " أنقذنا البئر من مشاق جلب الماء من الحنفيّة العموميّة كل يوم". ابتسمت ابتسامة خفيفة، وهي تتذكّر كيف ذبح والدها ذلك الديك الروميّ احتفالا بانبثاق الماء. بل وزّعت للجيران من لحمه المطبوخ صدقة، حتّى يكون مباركا على من يشرب أو يتوظأ منه.

ـ أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله.. قالتها وهي تَمسَح على شعرها، ثم تعيد تسوية غطاء رأسها، وتُكمل حتى تُنهي بغسل رجليها.

ترفع السطل وتُلقي بالماء الذي تبقّى فيه بعيدا، ثمّ تَقلبُه على فوهته قرب البئر.

تعود إلى غرفتها وهي تتحسّس طريقها تحت الإنارة الخافتة نحو الخزانة حيث قلّبت بعض الملابس.. كدّستها على الأرض، ثم لبستها تباعا.. ألقت منديلا من الصوف فوق رأسها، كانت قد جمعت صوفه من موسم جزّ الخرفان في السنة الفارطة.. صوف أبيض ناصع تتمنى كل امرأة أن تنسج منه منديلا لها أو لابنتها جهازا.

رتّبتْ المنديل، ثمّ سحبتْ سجادة من حلفاء معلّقة على الحائط.. فرشتها على الأرض، وشرعت في أداء صلاة الصبح:

ـ الله أكبر..

.....

السماء مُتّشحة بزرقة خفيفة تُرصّعها نجوم متراصة، وقمر متربّع على هضبة طرف المدينة، يدفع ظلمة خفيفة إلى الابتعاد، وينتظر أن تدبّ الحياة ليختفي.. الفصل خريف، مع ذلك فالسماء زرقاء كأنه الربيع.

الربيع فصل الخصوبة والحب.. ولكن أين الخصوبة في هذه المدينة الباهتة؟ مدينة كلوْحة رماديّة في إطار عُلّق على حائط قديم، لا يُوحي لك بأيّ انطباع عدا الثبات والجمود والركود المميت.

مدينة فلاحية، حياة أهلها منذ زمن لم تتغيّر نفس البيوت والمزارع والمسالك الفلاحية.. مقهى "العَجْمي" هو نفسه منذ سنوات، وحانوت الشيخ علي لبيع المواد الغذائية، الذي لم تُستَبدل الدكّة الاسمنتية التي تتربع على خدّ الحانوت حتى بعد أن أصبح الحانوت "سوبيرات" صغيرة مواكبة للعصر بباب من الألمنيوم. نفس الدكة الاسمنتية التي يتخذها العم صالح ورفاقه مكانا لتبادل الأخبار ونشرها والتعليق على الأحداث الاجتماعية والسياسية وغيرها.. يظلون داخل الحانوت أو على دكّته حسب حالة الطقس،أحيانا إلى آخر ساعة من الليل، خاصة عندما تتشعب المواضيع ويكثر النقاش حول مسألة ما. وأحيانا كثيرة ينتهي النقاش بخلاف حاد يؤدي إلى مغادرة كل واحد إلى منزله، ويبقى الشيخ علي وحده يضرب كفا بكفّ "ما أغرب هؤلاء الناس، كلهم يفهون في السياسة".. ثم يقفل الحانوت بدوره ويغادر متأففا.

ضوء القمر يَرعى فوق المنازل كغُول أسطوريّ يَحرُس المكان منذ عشرات السنين.. منذ أن حل بالأرض الجرداء المَحوطة بالهضاب شيخ علامة متصوف، يُدعى سيدي علي المحجوب في أعلى هضبة تطل على السهول، حيث بنى زاوية يستقبل فيها رواده ومُريديه، ويتوقف عنده

تائه أو عابر سبيل أو مناضل. عندما كان النضال، نضالا حقيقيا دون غايات وأجندات، عدا الدفاع عن وطن مسلوب ومحتلّ.

يشاع أن المكان كان شديد الظلمة، تُغطيه سحابة قاتمة تقبع في سمائه منذ آلاف السنين، وأن المكان لم يكن شيئا آخر غير سهول ممتدة محوطة بهضاب يعبرها تائه أو مناضل أو عابر سبيل دون أن يتوقف، ليستقر في تلك الفيافي القاحلة. كانت زاوية الشيخ سيدي علي المحجوب محطة للتزوّد بالمؤونة أو للإستراحة من مشاق السفر الطويل أو للاستفسار عن قافلة مرّت أو مجموعة من الناس أو عن وضعية تمركز الجنود الفرنسيين في المنطقة.

ويُشيع أحد تلاميذ الشيخ علي المحجوب أن المكان أضيء للمرة الأولى عندما دقّ الشيخ وتدا في الهضبة، لينصب من وبر الناقة خيمته. وأن ذلك الإسفين فجّر عين ماء ظلت تجري لسنوات، ثم انقطعت فجر اليوم الذي استشهد فيه العلامة سيدي علي المحجوب في حربه ضد الأسبان على حدود المدينة.

كانت تلك العين أساس وصول الرحّل والرعاة للإقامة. كان الماء وحده صُرّة العالم ونقطة الارتكاز. تنتشر القبائل والجماعات في أرض الله الواسعة بحثا عن الكلإ والمرعى قرب بئر أو عين ماء. الماء فقط حلم الانسان التائه والباحث عن الاستقرار في عالم متغيّر. أخذت القرية في الاتساع والامتداد، ونمت بها الفلاحة، حتى صارت مكانا آمنا للاستقرار والمعيشة والتزاوج، بفضل تلك العين التي فجّرها إسفين العلامة سيدي علي المحجوب.

وإنْ شاب المدينة بين الحين والآخر بعض الجرائم والسرقات التي لا تتعدى كونها من المظاهر العادية، فإن أهل المدينة يعدّونها استثنائية وشاذة. ذلك أنّ بركة الشيخ علي المحجوب كانت تحمي القرية من شرّ قادم أو بلاء محتمل.

فحتى أثناء الفترة الاستعمارية، لم تشهد المنطقة حركات مقاومة مهمة، عدا قطع بعض أعمدة الكهرباء أو سرقة بعض الأغراض لمعمرين فرنسيين، أو لمن ترسلهم سلطة الحماية ليمثلوها في تسيير أمر البلاد والعباد. هذا ما يردده العم صالح في كل مرة يتجاذب فيه أطراف الحديث مع الأصحاب والعابرين، عن أصل البلاد والعباد، وشجرة الأنساب فيها. وهو يدعي علمه بكل تاريخ المدينة وأهلها وسكانها وأهم العائلات التي استوطنتها.

وهو لا يعلم أنّ علم الأنساب والجماعات علم عظيم، وأنّ تفكيكه لا يحتاج إلى شيخ يتوسّد دكّة حانوت في شارع منسيّ.. في مدينة منسية.. في بلد ينهشه الفقروالأمراض والاستعمار الفرنسيّ.

مقارنة بقُرى ومدن ساحلية أخرى تعد المدينة هادئة ويُستطاب فيها العيش، دون مشاكل. وظلت قصة الشيخ سيدي علي المحجوب تتوارثها الأجيال أبا عن جد، وتُحاك حولها تمثيليات وأخبار وخرافات صدقها البعض وأنكرها آخرون.

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أكملت عائشة صلاتها وظلت في مكانها رافعة يديها إلى السماء تدعو لزوجها وأبنائها بالصحة والعافية وطول العمر.

انتصبت رافعة معها سجّادتها لتعيدها إلى مكانها، ثم سوّت منديلها فوق رأسها. لبست شبشبها وتوجّهت إلى الزرّ الحائطي لتُخمد إنارة المصباح الصغير المثبت في الحائط، وخرجت بهدوء من غرفتها إلى صحن المنزل الواسع، نحو المطبخ لإعداد فطورها، يسبقها ظلها المنعكس بفعل ضوء القمر. ظلّها الذي يتمدّد أكثر وهي تخطو خطوات السلحفات، ليتسلّق سور المنزل القصير كلصّ بلباس شفّاف. كانت تتابع ظلّها الذي لا يعكس طولها الحقيقيّ. فهي نحيفة وقصيرة، عكس ظلها الذي يظلّ يتمدّد بفعل انعكاس القمر، كشجرة سرو تتلاعب بها الريح.

كان البرني لحظتها ملتصقا بسطح المنزل كسحلية يرقب حركة عائشة.. كان ملثّما وعيناه تشعّان كطائر السَاف يَرقب فريسته. أنا قلت طائر السّاف، لأن اسمه كثير التداول في نقاشات الأهالي حول أصل القرية وتاريخها. العم صالح يصر ويُعاند أن أصل تسمية المدينة، يرجع إلى وجود طير الساف بكثرة في القرون البعيدة، حين كانت القصور الرومانية المشيّدة في مكان القرية تسكنها طيور السّاف بكثرة. ولكن الأستاذ البشير، يظل يسخر منه دائما، قائلا بكل ثقة وتمكّن، أن طير السّاف لا يسكن إلا المرتفعات كالجبال والهضاب العالية، وأن التاريخ لم يُثبت أن قصورا كانت هنا لا رومانية ولا غيرها، وكثيرا ما ينتهي نقاشهما إلى أن يشعل العم صالح سيجارته "الكريستال" وينتصب كالثور الهائج مغادرا، وهو يتمتم "الجهل مصيبة..".

وكأنّ جيله، جيل المعجزات والخوارق، أو كأنّ ما تعلّموه في الكتاتيب المُلحقة بالمساجد والزوايا، ألحقتْهم بصفّ الأمم العظيمة.

يظلّ الأستاذ بشير يؤكّد دائما أنّ تسمية المنطقة يعود إلى حجر يسمّى الساف، ولا علاقة للتسمية بالوليّ الصالح "سيدي علي المحجوب" الذي يُشاع أن هزيمته في حربه ضدّ الغزو الإسباني للساحل الشرقي للبلاد التونسية، هيّ أصل التسمية. يقولون أن من عاد ليُخبر بهزيمة المجاهدين الذين يقودهم سيدي علي المحجوب قد اكتفى بقول "قصُر السيف". فتمّ تحريف العبارة لتصبح "قصور الساف".

كثيرا ما يُثار هذا النقاش كلّما حدث حادث يتداوله الصغير والكبير.

خرجت عائشة من المطبخ وتوجّهت نحو كدس من التبن، وشرعت تدسّه في كيس من قماش ثم رفعت تلك الرزمة فوق ظهرها، وتوجّهت خارج المنزل نحو زريبة الخرفان الملحقة به. زريبة خلف البيت سياجها الحطب وأعواد الصبار الجاف وبعض العجلات غير الصالحة للاستعمال. أغلقت باب المنزل خلفها وهي تغادر، فيما قفز البرني بحركة بهلوانية. دخل المطبخ وأحضر

سكينا، ثم عاد إلى غرفة نوم عائشة، وبهدوء تسلل ـ يسبقه ضوء المصباح الذي يعض عليه بفمه ـ حيث ما زال عبد الله يغط في نوم عميق.

سحب طرف الغطاء بهدوء ليتثبّت من وجود الشخص الذي يستهدفه، وبحركة أسرع من البرق ضغط بيده اليسرى على فم عبد الله، وسدد له باليمنى طعنة على مستوى القلب، ثم أخرى وأخرى في مناطق عديدة من جسده. مسح مقبض السكين بمنديل سحبه من جيبه، ثم ألقى به على الأرض وظل ينظر في وجه عبد الله وقد شعّت عيناه ببريق لافت، وكادت تأخذه الغبطة، لكنه استفاق مرتبكا، وخرج مسرعا من الغرفة نحو صحن المنزل ومنه تسلق نفس الجدار الذي قفز منه إلى السطح في اتجاه طريق جانبي فلاحي ضيق، وهو الذي اتخذ قراره في اللحظات الأخيرة حول طريقة القتل. كان مصمّما على خنقه قبل أن يقفز إلى سطح المنزل، ولكن خروج عائشة من المطبخ، أوعزت له بفكرة السكين.

كانت عائشة في طريقها إلى الرجوع بعد أن تفقّدت أغنامها وقدّمت لها عشبها والماء. دخلت إلى المنزل وألقت الكيس الفارغ حذو كدس التبن واتّجهت إلى غرفة نومها.

دخلت الغرفة وشرعت تُعالج مقبض الشباك لتفتحه:

ـ عبد الله.. عبد الله

فتحت الشباك، فهبّت نسمة خريف باردة لذيذة مصحوبة بإضاءة خافتة، دخلت جهة نصف الغرفة، فيما ظل النصف الآخر ـ حيث سرير عبد الله ـ شبه مظلم، كزاوية من ركح في مسرحية تدور أحداثها في مقبرة.

أنا قلتُ المقبرة وقد جالت في ذهني قصة المجنّسين الذين دفنوهم في مقبرة الجهة جنبا إلى جنب مع بقية الموتى. وقد احتج الأهالي وانتفضوا على هؤلاء الموتى الذين باعوا بلادهم وأهلهم من أجل خدمة المستعمر الفرنسي. وثمة من هدّد بنبش تلك القبور وإلقاء تلك الجثث إلى الكلاب السائبة."هؤلاء لا يحق دفنهم مع المسلمين في نفس المقبرة" ولكن سلطات الحماية الفرنسية، هدّدت الأهالي بأن أيّ فعل من هذا القبيل، قد يعود عليهم بالوبال. خرج الاستعمار وظلت تلك المقبرة الصغيرة كبقعة زيت على لباس أبيض، وقبِل الأهالي على مضض بأولئك الموتى واعتبروهم موتى كغيرهم من الأموات، وأنّ الله وحده هوّ من سيحاسبهم على تنكّرهم لأهلهم وقضيّة النضال الوطني.

شرعت عائشة في رفع بعض الأغراض من الأرض وترتيبها:

ـ عبد الله .. يا عبد الله، النهار طلع..

ظل عبد الله غاطا في غيابه رغم حضوره، فانتبهت عائشة إلى صمته الرهيب.. كان لسنوات سريع الانتباه بمجرّد حدوث أيّ ضجيج أو حركة، ولو كانت خفيفة.. كان القط إذا نط من سور

المنزل إلى صحنه يسمع حركته. والخراف إذا ضجّت أو فزعت من حركة إنسان أو حيوان، يسمع فزعها وحركتها المضطربة، فينتفض مسرعا نحو صحن الدار أو الزريبة ليتفقّد المنزل والأغنام. كان عبد الله يعرف مسبقا أن لا أحد يتجرّأ على دخول بيته و زريبته، وكان يعلم أيضا أن لا أحد يمكن أن يفكر مجرّد التفكير في الاعتداء عليه، أو المسّ منه. طبعا قناعته هذه مستمدّة من مكانته في الاجتماعيّة باعتباره عون أمن مهاب الجانب، وأن الأمن في هذه البلاد عماد المجتمع وركيزته الأساسية.

ليس من عادته أن يبقى موغلا في سباته بلا حركة:

ـ عبد الله .. يا عبد الله.. يا رجل ما بك؟ ألا تسمع؟

اقتربت منه. حرّكته حركة خفيفة، لكنه لم يُجب، ولكنها ـ أيضا ـ اكتشفت في نفس اللحظة حرارة الدم بين أصابع يدها، ولون الدم القاني يُغطي كامل اللّحاف الذي يتدثر به.. سحبت يدها.. قرّبتها إلى عينيها بذهول، وظلّت ترمق الدم يتموّج ويَرسم جهة للرعب وللخوف وللكُره وللعدم. لم تفهم مشاعرها، وهي تتراكم وتتضاعف وتتضخّم، حتى وصلت جهة حلقها لترفع عقيرتها بالصّياح هزت به أرجاء الحيّ. ثم أتْبعتها بصيْحات وولولات ونحيب. انكبّت على جسد عبد الله تهزّه هزّا عنيفا، تدفع أجزاءه إلى الحركة أو حتى إلى التألم. المهم ـ وهي تحرّكه بهستيريا ـ كانت تحاول أن تكتشف نبض حياة فيه، دون جدوى.

خرجت إلى صحن المنزل ملطّخة بدم الفجيعة. الدم لطّخ كلّ ثيابها ومرّغ وجهها وأطرافها. رفعت عقيرتها بالنّحيب، فجاء صوتها كصدى خارج من قعر بئر عميق، إلى فضاء رماديّ يتسع حينا ويضيق أحيانا، حسب تردّدات الصوت وارتفاعه وانخفاضه.

لم تكمل سحب أنفاسها من صيحتها الثالثة حتى تجمّعت نساء الحيّ وأطفاله ورجاله، وتدافعوا أمام المنزل. بل تجرّأت بعض النسوة على دفع باب المنزل والولوج إلى صحْنه، وتجمْهرن حول عائشة وهي جالسة على الأرض تولول وتضرب على فخذيها وصدرها، تحفر الأرض

بأظافرها وتصبّ تراب الفجيعة على رأسها، فيختلط الدم بالتراب والقشّ، لتتحوّل عائشة إلى ما يُشبه فزّاعة من قشّ، خرجت من بين حقول القمح على مشارف كنيسة مهجورة.

ظلّت تولول وتضرب الأرض خبْط عشواء، فيما لم يستوعب الحضور فجائية المشهد وفضاعته. اقتربت بعض النسوة من عائشة يحاولن الاستفسار، ولكنهن لم يظفرن بغير كلمات لم يفهمن منها غير "عبد الله مات.. عبد الله قتلوه"

أسْرع بعضهم إلى غرفة نومها، فهالَهُم المشهد. فيما انتصب الشيخ علي أمام باب الغرفة وهو يُغطي وجهه من هول الصدمة. أمكن له أن يدخل إلى غرفة عبد الله ليكتشف هول الفاجعة. وصل صوت عائشة حادا كسكين إلى جوف حانوته. لم يستوعب الصراخ لحظتها، ولكنه

استنفر كلّ حواسه ليتأكّد أن خطبا ما قد حدث في الحيّ. أسرع إلى المكان حثيث الخطى، بعد أن أغلق حانوته وأطرد صاحبته، دون أن يتوجه إلى الجامع كعادته كلما استقبلها في حانوته ذاك:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. الرجل مقتول

أغلق باب الغرفة وسط ذهول الحضور وصدمتهم:

ـ لماذا قتلوه؟
ـ كيف قتلوه؟
ـ هذه أغرب الجرائم.
ـ ...
ارتفع الضجيج والنقيق، وتعالى العويل، ولم تعد تَعرف من يولول ومن يتحدّث ومن يبسمل ويحوقل. حوقل.. حوقل.. فالله يحضر إذا حضر الغياب وأطل الموت.

اقترب بعض الرجال من الشيخ علي ليتشاوروا في الأمر، فالشيخ علي كبير الحيّ وقدوة أهله ومرجعهم ومشورتهم في شؤون دينهم ودنياهم.. قال الشيخ علي موجها كلامه إلى حاتم ولد حبيبة مربّتا على كتفه:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. اسمعني يا ولدي، لا أعتقد أنّ أحدنا يملك رقم هاتف مركز الشرطة. لا أعتقد.. أسرع وأعلمهم بالحادث..

ـ حاضر سيدي الشيخ..

وانفلت كالضوء من بين الحضور في اتجاه مركز الشرطة، لإعلامهم أنّ سي عبد الله الحرَس، الرجل المتواضع البسيط المحبوب لدى الجميع وجدوه مقتولا في غرفة نومه. وإن كان حاتم ولد حبيبة لم يدخل الغرفة، ولم يرَ عبد الله مقتولا، إلا أن كلام الشيخ علي وتجمهر أهل الحي وعويل النسوة ونحيبهن، لا يدع مجالا للشك. المهم لا بد أن يقوم بواجب يفرضه عليه أهل الحي، فهو من الذين لا يتوانون عن خدمة غيرهم ومساعدتهم.

تراه حاضرا في كل أعراس المدينة ومآتمها وأفراحها وأتراحها. مع كل عريس وأمام كل نعش، وهو أول من يسبق الناس إلى المقبرة لحفر القبر، وأول من ينزل إلى القبر ليستقبل الجثة. مع ذلك فولْد حبيبة لا يحبّه كثير من الناس رغم أنهم يستعينون به دون حرج في قضاء شؤونهم، ويبدو أن سيرة أمه هي التي جعلت الكثير من الناس يكرهونه ويشمئزون منه، مع أنه لا يعلم سبب كرههم له، وأنه أيضا لم ير في سلوك أمه ما يلفت الإنتباه أو يثير الريبة.

فيما كان ولد حبيبة يركض نحو مركز الشرطة، شرعت بعض النسوة في منزل عبد الله في ترتيب الأغراض وكنس صحن المنزل ورفع بعض القشّ والتبن وتكديس بعض الأدوات الفلاحية الأخرى الملقاة دون ترتيب هنا وهناك، يحدث ذلك تحت أنظار الشيخ علي الذي ما

زال منتصبا تداعب أصابعه حبّات سبحته الزرقاء، تعينه على أن يبسْمل ويحوْقل أمام غرفة عبد الله في انتظار وصول أعوان الأمن.

ما زالت عائشة تفترش الأرض وهي تندب وتضرب خبط عشواء دون وعي بما يحيط بها.. وهي تندب زوجها، إنما تندب حظها العاثر وحياتها المتقلبة وأطفالها الذين انقلبوا على وجوههم، فلم تعد تعرف إلى أي منقلب انقلبوا.

"سترين السعادة كالضباب.. تطل حينا ثم يبتلعها الغياب" حضرت كلمات تلك العجوز الشمطاء دون إذن، ودون أن تستدعيها. تظل كلماتها ترنّ في صدغها كذبابة القبور، كلما حدث حادث.

لم يرض ابنها كمال بزواجها من عبد الله، بعد أن كثر الكلام والشائعات في الحوانيت والمقاهي، فهاجر إلى أوربا وانقطعت أخباره. منذ أن استقلّ قاربا من ثلاثة أمتار مع مجموعة من شباب الجهة، لم يتلقّ أي من عائلته القريبة أو البعيدة أيّ خبر أو معلومة عنه، أو عن أولئك الشباب الذين اصطحبهم، هل وصلوا إلى أرض الميعاد، أم ابتلعتهم البحار وصاروا أكلة شهية لحيتانها الفتاكة الضارية. ظل القارب يمور بهم بين موج وموج، يرتفعون رعبا وينخفضون خوفا. وبين الخوف والرعب، مسافة من هوّة لا قرار لها. البحر "داخله مولود والخارج منه مفقودْ"، كما يقولون.

أما ابنتها ليلى، فظلت تكنّ لها عداء خفيا حتى نجاحها في الباكالوريا وانتقالها إلى العاصمة لدراسة الحقوق. وظلت لسنوات تعتبر غياب والدها فرصة للانعتاق من حدود العائلة وسجنها الذي أبقاها لسنوات رهينة التقاليد البالية والسلطة القاهرة.

"سترين السعادة كالضباب.. تطل حينا ثم يبتلعها الغياب".. نعم صدقت تلك الشمطاء. فقدت أبنائي وها أنا الآن أفقد زوجي. ظل ذلك الكلام يمور في أحشائها بحرقة إلى أن حلّ أعوان الشرطة يصحبهم عُمدة الجهة وبعض الوجوه التي لا تراها إلا عند حلول المصائب والنوائب، أو عند زيارة مسؤول إلى المنطقة. المنطقة المنسيّة التي لا تحضر في أذهان هؤلاء إلا في المواعيد الانتخابيّة، أو عند محاولاتهم اليائسة تلميع صورة النظام.

دخل بعضهم إلى غرفة عبد الله، فيما انتشر آخرون في أنحاء المنزل يفتشون عن شيء ما. كان العدد كثيرا، وانتشرت حول المنزل سيارات الشرطة وفرقة مقاومة الإجرام، وجاب المكان العديد من أعوان الأمن بأزياء رسمية ومدنية، تصحبهم كلاب بوليسية ضخمة مدرّبة.

فيما لا زال الوجوم يُغطي وجوه الحضور وينتشر العويل في سماء قصور الساف أمام تدافع النساء والرجال والمارة والأطفال، بعضهم توقّف لمّا رأى التجمهر، ولا يعرف ما الذي حصل. بعضهم قيل له أن طفلا سقط سهوا في بئر عميق، وآخر يسأل عن كمال هل وصلت رفاته من إيطاليا. فما يُشاع عن انخراطه في تنظيمات المافيا، يجعله عرضة للموت في أي لحظة.

وصل نجيب كعادته كلما سمع أن شخصا ما قد مات، ويظل هناك ينتظر الجنازة، فيصحبها إلى المقبرة، ثم يعزي أهل الميت، ويطلب منهم بعض الملاليم ترحما على الهالك.. نجيب يظل يمسك بتلك الرزمة من أسلاك الهاتف متعددة الألوان، يظل يضفرها ويوزعها على الأطفال دون أن يطلبوا منه ذلك. رزمة من أسلاك الهاتف لا تفارقه أينما حلّ، بل أن بعض النسوة يعتبرن تلك الأسلاك فال خير على كل أنثى أو حامل أو عانس. تتسلم من نجيب تلك الضفيرة، وتدسها في جيبها أو في البيت بين الأغراض تبرّكا بهذا الشاب. شاب لا تعرف هل هو معتوه أم أبكم أم غبيّ. ولكن قدرته على حفظ تواريخ وفاة عدد من الناس وبالتاريخ الهجريّ، يثير عند العامة أكثر من سؤال، بل يثير حيرة وريبة.

بين الجنون والتعقل خيط رفيع لا تكاد تمسك به وأنت ترى نجيب المتشرد الهائم على وجهه، كيف يعلو الى المنتهى حين يتنبأ بأحداثٍ ووقائع لا يُصدقها أحد. وكيف يتدحرج إلى أدران الواقعي حتى يلامس الجنون.

في الوقت الذي انتشر فيه الخبر كالنار في الهشيم، خرج أحد أعوان شرطة مقاومة الإجرام من غرفة عبد الله، ومعه كيس من البلاستيك فيه سكين من الحجم الكبير لطخته الدماء، رفعه إلى مستوى صدره ليراه الحضور قائلا:

ـ تأكدنا أنها جريمة قتل.

حاتم ولْد حبيبة الذي يقرفص على سطل مقلوب وسط المنزل، علّق بسخرية بينه وبين نفسه:

ـ الدم ينزف حتى وصل إلى مقهى العجمي، وهو يقول "تأكدنا أنها جريمة قتل".

ظل عون الأمن يستجوب بعض الأفراد، ويتحاور تارة مع بعض أعوانه.. سُمعت صافرة سيارة الإسعاف آتية من بعيد، منذ اقترابها من الوليّ الصالح "سيدي الشوالي" في طرف المدينة، فارتفع النواح والعويل، واشتدّت وتيرة الارتباك لدى الحضور، فيما نهضت عائشة ملبّدة بترابها ودموعها تمشي أو تزحف في اتجاه غرفة نومها، حيث ما زال عبد الله مُسجّى. وارتطمت بالشيخ علي وبأعوان الشرطة الذين منعوها من الدخول. وأمام إصرارها دفعها أحد الأعوان فسقطت على ظهرها، مما أثار حفيظة الأهالي الذين انتفضوا مُحتجّين.

أحد الشبان استلّ منجلا كان مشدودا إلى الجدار بمسمار غليظ، وتوجّه إلى عون الأمن ليؤدبه:

ـ ولد القحبة.. تضربها؟؟

تدخّل بعض الرجال للإمساك به وتهدئته، ولولا ألطاف الله وكلمة الشيخ علي لحصل ما يشبه الكارثة.

شعر عون الأمن بخطورة ما اقترف، فطأطأ رأسه، ربما خوفا من ردّة فعل الحاضرين. حين أمسكوا بالشاب الغاضب وهدّؤوا من روعه، وافتكّوا منه المنجل، ابتسم عون الأمن ابتسامة صفراء وقال بهدوء "نقدّر فجيعتكم، لكن هذا شغل".

سُمعت صافرة سيارة الإسعاف مع اقترابها من الحيّ.. توقفت الأنفاس وتسارعت دقّات القلوب ووجمت الوجوه. كان في استقبالها ـ حين توقفت ـ أحد أعوان الأمن، حيث أمر الأعوان بنقل جثمان عبد الله إلى المستشفى، ومنه إلى مصالح التشريح.

دخل إلى الغرفة عونان، ثم خرجا بعد دقائق يرفعان جثمان المقتول على نقالة الموتى، وسط نحيب النسوة وعويلهن. وحتى الذي لا يعرف القتيل هاله المشهد لمّا سمع أن الرجل قتل في غرفة نومه.

ارتمت عائشة على النقالة بغبارها، غير أن الأهالي أمسكوا بها، وبجهد أمكن إبعادها عن طريق أعوان الأمن والحماية المدنية، فسقطت مغشيا عليها، وتُرك أمرها إلى النسوة حتى يوقظنها من غيبوبتها.. فيما انطلقت سيارة الإسعاف في حال سبيلها تطلق في الأرجاء ولولات حادة.

ما زال اللغط خارج المنزل يرتفع ويخفت، في الوقت الذي توقفت فيه سيارة تاكسي، ونزلت ليلى مسرعة إلى المنزل، توقفت لحظة. تأملت المشهد، أناس تعرفهم ولا تعرفهم. نسوة متشحات بالسواد وأغطية الصوف. أعوان أمن ينتشرون في المنزل.. أطفال وصبايا.. أمها تجلس أرضا وتضرب في التراب خبط عشواء، وهي ترفع عقيرتها بالصراخ رافعة سبابة يدها إلى السماء تستجدي رحمة أو خلاصا.

كادت رجلاها تقودها إلى غرفة النوم، لكن قلبها وجّهَها جهة أمها فأسرعت لترتمي بين أحضانها.. منذ شهرين أو أكثر بقليل، لم تطأ قدماها هذه الأرض ولم تزرها، ربما هربا أو كرها أو نقمة من مدينة لم تقدّم لها شيئا عدا الحقد. هذه المرة هتف لها هاتف يدعوها إلى زيارة أمها، دون أن تعرف لماذا ولا كيف. أفاقت آخر الليل وقررت أن تستقلّ سيارة أجرة من محطة "المنصف باي" في اتجاه قصور الساف المدينة، رحلة لا تعرف نتائجها التي ربما تكون وخيمة، حين تعيد الإصطدام مع أمها حول علاقتها بزوجها عبد الله. هكذا تتكرر الخلافات مع كل زيارة، تعود بعدها إلى العاصمة إما مطرودة أو هاربة أو متكدّرة.

قضت ليلة حمراء مع كهل بعمر والدها في إحدى شققه الكثيرة، ولكن محاولاته لإجبارها على ممارسات شاذة كدّر عليها تلك الليلة وحاولت مراوغته أكثر من مرّة، ولكنه كان يصرّ على أن تنفّذ شهواته. قضى وطره منها وتركها على فراش المتعة الفانية، وانسحب آخر الليل في اتجاه عشيقة أخرى، أو في اتجاه زوجته المملّة، بعد أن ألقى في وجهها ثمن خدمة الجسد الطريّ.

شدّت على الورقة النقديّة بغُلّ، محاولة إقناع نفسها بأن الجسد فان، والمتعة فكرة شاردة يجب اصطيادها قبل أن تهرب إلى الغياب.. دون جدوى حاولت أن تتقبّل تلك الأفكار التي تتردّد على مخيّلتها كلما غاصت في فراش الذلّ بين أحضان حريف أو عابر سبيل.

لملمت أطراف جسدها وارتدت ملابسها، وهي تسويّ تفاصيل لوحة وجهها بألوان هادئة، وقد قرّرت أن تقفل راجعة إلى قصور الساف. الليل تنين كاسر ينفث نار الشتاء الباردة والريح تحمل في جيوبها قطرات ماء الخريف القاتم.

كانت تصرّ على أن تصل إلى محطّة المنصف باي لتستقل أي سيارة أجرة إلى مدينة قصور الساف، رغم أن الحصول على سيارة تاكسي في هذا الليل الكاسر، ومن هذا المكان في اتجاه محطة سيارات الأجرة، تعدّ محاولة شبه عدميّة. إصرارها انتصر على الليل وأمكن لها أن تستقل وسيلة نقل في اتجاه مقصدها.

أوصلتها سيارة التاكسي أمام منزلها، ومرّت في حال سبيلها، غير أنها فور دخولها إلى المنزل هالها مشهد الناس المحتشدين. والناس بدورهم هالهم صورة ليلى وهي ترتمي بين أحضان أمّها دون أن تفهم ما الذي يحدث.

مشهد جعل الجميع يُطرقون رؤوسهم أسفا و تأثّرا. مشهد رفض بعضهم أن يكمل متابعته، فانسحب خارج المنزل، فيما ارتفع النحيب، كذا العادة كلما حلّ أحد الأقارب.

بعض النسوة كنّ يتهامسن في ركن قصيّ من المنزل حول لباس ليلى غير المحتشم.. سروال دجينز يكشف كل تفاصيل جسدها وتبان أحمر يكشف تدويرة النهد وحباته النافرة.

كان الحديث عن علاقاتها المشبوهة برجال في العاصمة، هكذا تداول سكان المدينة أخبارها عن طريق طلبة درسوا هناك ولاحظوا سلوكاتها التي تثير الريبة.

"ثم لماذا جاءت في هذا الوقت.." علقت سيدة عجوز.

"جاءت من تونس.البنت طالبة في الجامعة".. علقت أخرى.

ردت السيدة العجوز:

ـ من يأتي من العاصمة قد يصل منتصف النهار أو الواحدة بعد الزوال.. اللهم ركبت صاروخ.. وأتبعتها بقهقهة، كادت أن تفضحها، لولا تداركها بوضع طرف اللحاف الذي يغطي رأسها على فمها.

البعض أرجع انحرافها إلى أمها عائشة التي انساقت وراء هواها، وتزوّجت عبد الله، دون أن تراعي وضعية أطفالها.. كانت تعيش عيشة بسيطة، واستطاعت أن تتأقلم مع الحياة وتُطوّع

الصعوبات إلى صالحها، بعد أن انتظرت زوجها لسنوات، دون أن يعود من ليبيا، إثر هجرته إليها بحثا عن لقمة العيش.

في الأربعين من عمرها تركها زوجها، وسافر إلى ليبيا بحثا عن رزق هناك. لا صنعة لديه سوى "المرمّة" أو الفلاحة. ولكنه منذ أن غادر المدينة، انقطعت أخباره تماما. وفتح غيابه الفجئيّ كثيرا من التأويل والتساؤل. ثمة من قال أنه مات في الطريق ولم يصل إلى ليبيا أصلا، وهو الرأي الأقل شيوعا. ولكن الأغلبية تزعم أنه مات غرقا في البحار الليبية بعد أن غرق مركب الصيد الذي يشتغل عليه. غير أن إشاعة تقول أنه تزوّج بليبية واستقر هناك ينعم بأموال النفط، وباع البلاد وأهلها.

ـ باع ماذا يا ناس؟ الأجنبي لا يستطيع أن يتزوّج ليبية كان يبوس عينه. هكذا علّق العم صالح على تلك الشائعة التي نقلها أحدهم منذ خمس سنوات تقريبا، ويبدو أن العم صالح متأكد وهو يلوّح بيده ويدير رأسه في اتجاهات عدة. هكذا يبدو متأكدا وعالما ولا أحد بإمكانه أن يحاججه.

استطاعت عائشة أن تربي الأغنام والأرانب والدجاج، وتعمل في الفلاحة في قطعة الأرض الصغيرة المحاذية لمنزلها، تزرعها وتبيع من إنتاجها، بعد أن تستهلك ما يفي بغرضها. بقيت لسنوات صامدة في وجه الريح، رغم أن ابنها كمال لا يساعدها في شيء، وأن ابنتها ليلى متفرغة للدراسة لا غير. كانت امرأة مثالية في نظر الجميع. غير أن زواجها بعبد الله الحرس، أثار حولها الكثير من الشكوك والظنون، وبعضهم قال أنها كانت خليلته قبل أن يتزوّج بها، لهذا انفجرت علاقتها بأبنائها، فهاجر كمال دون رجعة، وانحرفت ليلى بمجرد وصولها إلى العاصمة لدراسة الحقوق. هذا كلام ظل يتداوله الرجال والنساء لأشهر عديدة، إلى أن خَفَت وتناساه الناس. وها أن مقتل عبد الله بطريقة مريبة أعاد القصة إلى الواجهة، وأعاد الناس إلى الحفر في القصص القديمة.

ومما يذكر أن كمال فُقد من الحي ومن المدينة والبلاد كلها، واضطرت عائشة إلى أن تُبلغ الأمن.. أقصد زوجها عبد الله من دفعها إلى ذلك.

وبعد أخذ الإرشادات اللازمة منها، وتكفل الأمن بالبحث عن كمال، ظل لأشهر مفقودا دون أن يعلم أحد أين هو ولا في أي مكان يختبئ.. حتى أن بعض الألسن الخبيثة أشاعت خبر موته على يد عبد الله الحرس بعد أن كثرت خلافاتهما بسبب واقعة الزواج تلك.

حتى أنّ العم صالح رجّح فرضية الإنتحار..

ـ ربما ألقى بنفسه في بئر عميقة.. هذا ما أعتقِده

وهذه هي المرة الأولى التي يسْرد فيها العم صالح خبرا أو قصة أو حكاية، دون أن يكون متأكدا شديد التأكد.

بعد خمسة أشهر تقريبا جاء الخبر اليقين:

ـ تركته في "جينوفا".. لا أعرف وضعيته بالضبط، هل حصل على أوراق الإقامة أم لا. هذا ما قاله "لزهر بوخا"، بعد طرده من إيطاليا طردا نهائيا، حين تم القبض عليه في أحد القطارات، عابرا إلى فرنسا.

ـ وكيف حاله؟ هل هو بخير؟ ينام؟ يأكل؟ ماذا يلبس؟ أين ينام؟؟

قالت عائشة وهي تجادل "لزهر بوخا"، للإطمئنان على ابنها كمال بعد أن أوشك اليأس أن يطرق باب قلبها.

ـ والله العظيم لا علم لي بوضعه ..

يفكر قليلا محاولا أن يختار العبارات:

ـ يعيش ولاباس.

ماذا يمكن أن يقول لها؟ هل يقول لها أنه متشرّد ويطوف الشوارع والأزقة؟ هل يقول لها أن المخدرات نهشت جسده حتى صار كفزّاعة في حقل من القمح؟ هل يقول لها أنه ينام جنبا إلى جنب مع نساء الليل وقطط الشوارع قرب حاويات الفضلات..

كمال مثله مثل مومس يتلقفه الرصيف ليلقيه إلى رصيف آخر.. مثله مثل أي مومس من دول أوربا الشرقية تارة يفترش ورق الجرائد ويُدثر جسده النحيل بمعطف قديم استلّه من حاويات الفضلات. وطورا يدس حلمه في نفق القطارات هربا من دوريات الشرطة والعصابات. ماذا يقول لأم ملتاعة، كانت تعتقد أنّ ابنها في رغد العيش. في جنة الأرض الموعودة. ما أغبى هؤلاء كم كرهتُ هذه التي تسمى أوربا. لا أحد يعرف هذا العالم الغريب إلا من عاشه واكتوى بناره البرّاقة التي يُنظر إليها باعتبارها الفردوس. نعم كذبتُ عليها بأن قلت لها "كمال يعيش ولاباس".. أن أكذب عليها أفضل من أن أصدمها بواقع ابنها المرير الذي لا يختلف عن واقع أي مهاجر آخر.

(2)

الشيخ علي وصل إلى حانوته، بعد أن أدّى صلاة الصبح، سحب المفتاح العربي من جيب كدرونه وأداره في القفل أكثر من مرة، فصات صديدا حادا، ثم أشرع الباب على مصراعيه، فانفلتت من الداخل رائحة رطانة ورطوبة ممزوجة برائحة شاي محروق وتبغ وعرق.

رواد الحانوت الذين يجتمعون على حصير من الصّمار للعب "الشكبّة" والدومينو، أحيانا يحوّلون اللعب إلى قمار ورهان على مائة غرام من "الكاكاوية" أو علبة سجائر، دون عِلم الشيخ علي. فإن يعلم الشيخ، يعني انتهاء اللعبة.. وكم من مرّة انتبه الشيخ علي إلى الشيخ الهادي وبعض أصدقائه يلعبون "الشكبّة" بِرهان على علبة سجائر، فيتدخل غاضبا ويفتك منهم الورق، وهو يرغي ويزبد ويتفوّه بكلام أحيانا كثيرة لا تفهم منه شيئا عدا كونه من معجم الكلام السوقي، ولكنه لا يظهره حتى يحافظ على مقامه.

يعرف الشيخ علي أنهم لا يتوبون عن القمار، ويعرف هو أيضا أنهم سيعودون إلى الحانوت حتى ولو أطردهم ألف مرّة. الأدهى من ذلك أن مرض القمار هذا يستفحل عند الجماعة في شهر رمضان، فتراهم يقضون الليل كاملا يتداولون على هذه اللعبة أو تلك، من بعد الإفطار بدقائق، إلى وقت الإمساك. حتى أن الشيخ علي أحيانا كثيرة، يترك الحانوت في ذمّة رواده، وينفلت مسرعا لأداء صلاة العشاء قبل أن يعود وقد وجدهم في نفس أماكنهم، حتى أنهم أحيانا كثيرة لا ينتبهون إلى زبون يدخل لشراء بعض الأغراض، يبقى واقفا بعض الدقائق ثم يغادر، وقد فهم أنّ صاحب الحانوت ليس موجودا، وأن من وجدهم هناك لا علاقة لهم أصلا بالتجارة ولا بالبضاعة المرصوفة هناك. وإن صادف أحيانا كثيرة أن يتكفل أحدهم ببيع أيّ بضاعة إلى أي زيون، ثم يعلم الشيخ علي بذلك عند عودته، تاركا له ثمن البضاعة على الكنتوار.

أسرع الشيخ علي إلى أخر ركن من الحانوت يتفقد ما بقي من البارحة من ليلة ساخنة مع حبيبة. أحيانا تكثر حبيبة من الزطلة حتى تفقد صوابها، وتنسى ملابسها الداخلية أو لحافها أو أي شيء يخصها، لهذا فالشيخ علي حريص دائما على تفقد الحانوت بعد كل مرّة تزوره حبيبة.

وتبدأ السهرة بعد صلاة العشاء. يبدأ الشيخ علي في عدّ الدينارات التي جمعها ذلك اليوم ويدس الورقات في جيب ميدعته الداخلي حيث ساعة الجيب التي لم تفارقه منذ أن استلّها من جيب والده وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة على غفلة من أخوته.

أما القطع المعدنية، فيرتبها في علب من الأليمنيوم داخل درج "الكنتوار".. يقسمها حسب الفئات.

يكمل الشيخ ترتيب "الكنتوار" وتنظيفه مما بقي من فضلات السكّر والخبز والطحين والشاي.. يتناول المكنسة ويمررها على أرضيّة الحانوت المبلّطة بإسمنت اهترأ وتآكل.

يخلع كدرونه ويرتبه في مسمار غليظ لا يعرف من دقه لأول مرة.. ويسحب من مسمار آخر جبته، يرتديها ويمسح بيديه عليها من الأعلى إلى الأسفل لينفض ما علق بها من غبار. يمسح شعره بكفيه، ثمّ يرتّب عمامته فوق رأسه، ويمرر السبابة والإبهام على شاربه.. يُعين ظهره على الاستقامة، ويخرج من الحانوت قبل أن يُدير المفتاح الغليظ أكثر من مرة، متّجها إلى المسجد.

هناك يستقبله المصلون على قلّتهم بحفاوة:

ـ أهلا يا شيخ

ويرد بوقار:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ـ كيف الحال

ـ الحمد لله على كلّ حال.. اللهم أعطنا الصحة والعافية وأعنّا على شكرك

يؤمّ المصلين، ثم يعود إلى حانوته، يدير المفتاح الغليظ أكثر من مرّة، ويندسّ بسرعة داخله، ثم يوصده من الداخل، وهو يتوجه إلى زر الكهرباء يضغطه، فتشعّ إنارة خافتة. يخلع جبته ويسحب من تحت الأكياس والصناديق لفافة من قماش، دسّ بها سجائر الزطلة.السجائر التي كان حاتم ولد حبيبة يقتنيها له من جهة غير معلومة، فيربّت الشيخ علي على كتفه، ثمّ يمدّ له بعض الدنانير عمولة، حتى يضمن تواصل الخدمة.

يسحب الشيخ علي سيجارة من تلك اللفافة ويضعها على مائدة مستديرة على الأرض مع علبة كبريت وقارورة كوكا كولا، ثمّ يسحب علبة سجائر من درج "الكنتوار" ويكمل بها المشهد.. هو لا يدخن كالمدخنين، ولكن اللحظات الممتعة يعيشها كما هي بكل بهرجها يستهلك سيجارة أو سيجارتين، للانتشاء لا غير.. وخاصة عندما تكون فيها حبيبة بجانبه، يمتّعه التدخين ويخفف من خجله.. كان يكره السجائر منذ أن كان طفلا، كان يرى والده يسحب علبة "الحلّوزي" ويشعل سيجارة، ويظل ينتظر كأس الشاي الذي تمدّه له زوجته وهي تبتسم. كان المشهد عاديا، غير أن كحة مفاجئة كانت تزوره من وقت إلى آخر، يبدأ في السعال والشخير والبصاق، فيحمرّ وجهه وتزيغ عيناه حتى يوشك أن ينفجر كبالون من هواء. حالة يوشك فيها على الاختناق، فتمدّ له الزوجة كأس الماء على عجل.. الحمد لله.

يحمد الله على النّفس، ثم يتناول كأس الشاي مرة أخرى وقد أوشك أن يموت بسبب سيجارة بحجم إصبع. تلك الصورة التي كثيرا ما تتكرر، هي التي جعلته يكره التدخين ويكره رائحة الدخان. "التدخين هو السم القاتل بالتدرج" هذا ما كان يردده دائما. يستحضر قصة والده كلما حاول أن ينصح أحد المدخنين بالإبتعاد عن هذا السم القاتل.

تدقّ الباب دقات خفيفة متتالية، فينتفض الشيخ علي يفتح الباب لتدخل حبيبة ملتحفة بسفساري كعادتها. يسرع الشيخ علي بإغلاق الباب بعد أن يُلقى نظرة خارج الحانوت علّ أحد الوشاة يصطاده، فينتشر الخبر كالنار في الهشيم، ولا أحد بعد ذلك بإمكانه أن يوقف الإشاعات التي قد تتحول إلى حقائق ثابتة.

تَدخل حبيبة وتُلقي السفساري على جانب "الكنتوار" وتلقي بجسدها على الحصير الملقى في ركن من الحانوت، وتتبع حركة السفساري بقهقهة فاجرة، لا تفجرها إلاّ في حانوت الشيخ علي. ولا أحد يعرف هذه القهقهة العارية إلا زوجها في شهرها الأوّل من الزواج، ثم بدأت تلك القهقهة تفْتُر شيئا فشيئا، إلى أن ذبلت، ثم ماتت مع إهمال زوجها لجسدها الطريّ، والالتفات إلى الخمرة والمومسات النتنات اللواتي تلقي بهن النتونة والفقر و"الزطلة" إلى حانات الأرصفة المقابلة لميناء الصيد البحري بالمهدية.

ـ كيف الحال يا شيخ؟

ـ ما زلتُ فحْلا أقدر على بنت العشرين

ـ يا حسرة.. هل ما زالت لك القدرة على بنت العشرين؟

ـ آتني بها وسترين

ـ هههههههههه

تطلق قهقهة فاجرة، تُجبر الشيخ علي على الارتماء عليها ليكمّم فمها، ثم يشرع في نهش اللحم الغض كفهد جائع.

هكذا يبدأ الحوار دائما بين حبيبة والشيخ علي في كل موعد بذلك الحانوت. وإن كانت تجبره أحيانا كثيرة على أن يؤجل تلك الوثبة إلى وقت متأخر من الليل، محاولة إنهاكه. وفي أغلب الأحياء تخونه قواه ولا يقدر أن يعتلي حبيبة أو يفرغ شحنته السلبية في نصفها السفليّ.

تتواصل السهرة إلى طلوع الفجر، ويجبَر الشيخ علي تبعا لذلك على أن يتخلّف عن صلاة الفجر، وتجده في كلّ مرة يبرر للمصلين غيابه، بأنّ "النوم ابن الكلب" أخذه ولم ينتبه إلى وقت الصلاة وتارة يتظاهر بالمرض، وأحيانا يصل المسجد وقد رفعوا آذان الصبح، واصطفوا

للصلاة بعد أن تكفّل مؤذن المسجد بإمامة المصلين. يضطر الشيخ علي، تبعا لتلك الوضعية أن ينظم إلى الصفوف الخلفية، بعد أن يتوظأ مسرعا.

أحيانا كثيرة يتذكّر أنّ حالته تستوجب الغُسل، ولكنه يكمل صلاته، على أن يعيد الصلاة إثر عودته إلى بيته. يغتسل غُسلا كامل. يحمدل ويحوقل، ويستغفر الله كثيرا ثم يعيد الصلاة، ويتمدّد في فراشه إلى أن يأخذه النعاس.

ظل الشيخ علي يواري قصّته مع حبيبة، منذ أن تُوفّي زوجها غرقا في رحلة صيد بالقوارب على شواطئ مدينة المهدية. رغم حرص الشيخ علي وحفاظه على سريّة هذه العلاقة، إلا أن الخبر شاع في أرجاء المدينة، ولم يعد خافيا على أحد. الكل يعرف علاقته بحبيبة، بل ثمة من يزعم أن ابنها حاتم هو نتيجة علاقة غير شرعية مع الشيخ.

والشيخ علي لم يكن يعرف زوجها. أو هو يعرفه معرفة سطحية، كأي حريف يأتي إلى الحانوت ليبتاع بضاعة ما.. وزوجها في الحقيقة لا يشتري شيئا لبيته، إلا إذا أملت الضرورة ذلك، فهو لا يعترف بشيء يخصّ البيت، عدا الأكل والشرب ومضاجعة حبيبة بعد الرجوع من كل رحلة صيد بَحْرية. وحتى قضاء حاجات المنزل أصبحت لا تعنيه بعد سنوات قليلة من زواجه. فقد استهلكته المومسات ونساء الشوارع. يعود إلى المنزل لينام ويأكل، ولا شيء يعنيه بعد ذلك. إلا إذا خذلته حبيبة، وامتنعت عن أن تشتري له رغيفا من الخبز، فيضطر إلى أن يذهب إلى حانوت الشيخ علي ليبتاع ما ينقصه وقد وجد عند حبيبة صدفة غداء أو عشاء جهّزته من باب العادة ليس إلا. وأحيانا بعض الجبن وأشياء ليكمل جلسته الخمرية، دون أن يتفطّن أن أبنه يمكن أن يقوم بذلك الدور.

يخرج الزوج في رحلة بحرية للصيد على متن قوارب السردينة، وقد يخرج من البحر بصيد وفير.. يتقاسم مع البحّارة ربحهم، ويمرّ مباشرة إلى حانة "القرصان" قبالة ميناء الصيد البحري بالمهدية، ومنها نحو بيت أي مومس يكمل الليلة بحضنها، وقد يَبقى الليالي الطوال إلى أن توشك الملاليم على النفاذ، فيعود إلى حضن حبيبة البارد، وقد عاد إليها متهالكا لا يقدر حتى على تقبيلها.

لهذا ارتمت حبيبة في حضن الشيخ علي..

ـ رجل يصلي ويعرف ربي.. ما يَلوّحْنيش

كانت كثيرا ما تحادث نفسها أمام مرآتها شبه عارية، بعد ليلة تقضّيها بين أحضانه. بلباس شفاف تدور حول نفسها وتتغزّل بجسدها الفتان:

ـ الكلب زوجي لا يعرف قيمتي.. يجري وراء القحاب، أمّا بُول عليه..

كانت تحادث نفسها، أو هي تتغزّل بجسدها الفتان، وقد نسيت أو تناست أن من توجّه له اللوم وتصفه بأبشع الأوصاف، ليس إلا زوجها الذي غادرها دون رجعة.

ألقت جسدها على سريرها وانخرطت في بكاء مرّ. علّ البكاء يعينها على قتل حالة الندم التي تعيشها هذه اللحظة، وقد استسلمت لشيخ بعمر والدها:

ـ لم أقصد.. والله لم أقصد.. يا رب سامحني.. ذهبتُ إلى الشيخ لأشكي له همي وإهمال زوجي.. يظل ذلك الساقط يطوف من قحبة إلى أخرى، حتى ينفذ ماله، ثم يعود إليّ ليرتمي بين أحضاني باكيا كالساقطات.

حاول الشيخ علي مواساتي، ولكن عيونه كانت تلسح جسدي وتنهشه ككلب مسعور. حاولت الهروب من نظرات كالسهام. غيّرتُ الموضوع أكثر من مرة، ولكن رغبة الجسد العطشان ألقت بي في حضن شيخ جاوز الستين. أنا إنسانة ضعيفة.. تلك ميزة البشر. بل أنا أكثر من ذلك امرأة.. امرأة فاتنة وجميلة وجسدي يثير البلبلة أينما مشت قدماي. كنت أسمع فحيح الرجال حولي وورائي وعلى جنبات الطرقات، وهم يتساقطون صرعى ضحية كل ما هو مستنفر من جسدي..

في كل مرّة ألتقي بالشيخ علي في حانوته، وتجمعنا الحميمية والدفء، يدفع لي من مال حانوته، بل ويزيد عن حاجتي كلما أطنبت في دلاله:

ـ هذا من رزق الله.. استعيني به على قضاء حاجاتك.

ظلت حبيبة تأخذ منه، بل وتطلب المزيد بعد أن تيقّنت أنّ الشيخ هَامَ بها، ولم يعد يصبر على فراقها. وهو الأعزب منذ أن هربت زوجته مع ابن عمها، بعد شهرين من زواجه، ولا أحد إلى الآن يعرف مصيرهما.

يشاع أن عشيقها ذبحها بعد أن ندمت وأرادت العودة إلى زوجها، وثمة من يقول أن غضب سيدي علي المحجوب أهلكهما بعد أن هاجمتهما الذئاب في غابة مدينة الشابة، وهما يتسللان خلسة إلى من سيصطحبهما إلى جهة غير معلومة. أما البرني فيؤكد لأمه ولأصدقائه أثناء محادثتهم بالهاتف، أنه رآها في مدينة طرابلس الليبية، تعيش خادمة عند شيخ ليبي، بعد أن ألقي بابن عمها في السجن بتهمة التخابر.

كل أهل المدينة يلومون عبد الله الحرس على مساعدته لها، كي تهرب مع ابن عمها. ظل الشيخ علي معتزلا النساء لسنوات، بل هجَر بيته ولم يعد يدخله إلا ليلا لينام، واستعاض عنه بالحانوت الذي يقوم فيه بكل شؤونه. أما بقية اليوم فيقضيه في المسجد يؤمّ المصلين.

عاد الشيخ علي من منزل عائشة، بعد أن شاع خبر مقتل زوجها عبد الله. عاد متهالكا وثقيلا إلى الحانوت. أدار المفتاح الغليظ في الباب وأشرعه على مصراعيه، وألقى بجسده على كرسي خشبي دون أن ينتبه إلى أي شيء في الحانوت كعادته.

مازال واجما، تهاجمه الأفكار وينخره القلق من يوم لم يكن كباقي الأيام في حياته:

ـ لماذا يتم قتل عبد الله بهذه الشناعة؟ لماذا يُذبح هكذا بهذه الطريقة، وعلى فراشه؟ من فعل هذه الفعلة النكراء، ولأي سبب؟

أما هو فيستحق هذا.. نعم يستحق هذا. تعدّى على شرفي وساعد زوجتي على الهروب مع ذلك الكلب ابن عمها. المسكينة لا تعرف السيْر بين أنهج المدينة، فكيف لها أن تقطع كل تلك المسافة لتلتقي بالتيجاني ابن عمها، وتهرب معه إلى ليبيا كما قال البرني.

أقسم بالله العظيم لو أمسكتُ بهما، لقطّعتهما إربا وألقيت بلحمهما إلى الكلاب. القحبة باش تلقى خير مني؟

عبد الله يَدّعي العلم والسلطة، وهو يرفع رأسه باعتباره يعمل في أهم جهاز في الدولة..
الطواغيت هذه لا تستحق إلا الموت. منذ أن ألصقوا تلك النجمة على كتفيه، والسيد صار يحكم بأمره...

ـ السلام عليكم.. صباح الخير يا شيخ علي

نادى الشيخ الهادي من الخارج، وهو يأخذ مكانه على السدّة الاسمنتية الملتصقة بخدّ الجدار الخارجي للحانوت.

ـ وعليكم السلام. ردّ الشيخ علي من الداخل وهو ينتفض من غفوته، وتوجّه إلى سطل الماء في ركن من الحانوت، وأخرجه معه وشرع يرش الماء على التراب ليساعده على أن لا يثور في وجه المارة والجالسين. هكذا يكرر هذا الفعل مرتين أو أكثر في اليوم، منذ أن مرت بالطريق معدات التجهيز لإعادة تهيئته، وتركوه هكذا لسنوات دون أن يجد المارة تفسيرا لذلك.

ـ صباح الخير شيخ الهادي. أتيتَ قبل موعدك اليوم؟

ـ صباح الخير شيخ علي.. كالعادة. يبدو أن حكايتك مع هذا الطريق ما زالت متواصلة..

ـ حكايتي طويلة جدا.. لم أفرغ من شؤوني الخاصة، حتى إنضاف إليّ الطريق، كأن لا شغل لي غير رشّ الماء صباحا مساء عوضا عن البلدية. دولة خربة لا تشرع في إنجاز شيئ وتكمله.

ـ يا شيخ علي.. يا شيخ علي، دعنا من ذكر الدولة وهمومها. يكفينا من المشاكل. هل تريدهم أن يلقوا بنا وراء الشمس ؟؟ أنا صاحب عائلة يا رجل، ولست مثلك.

شعر الشيخ علي بوجع ينخر حواسه، وانخفض منسوب الدم في شراييه، وهو يستمع إلى ما اعتبره إهانة. شعر أن الشيخ الهادي صاحب عائلة له معنى في حياة بلا معنى. العائلة هي المعنى. يعود إلى زوجته وأطفاله في كلّ مرة يغادر فيها المنزل. يعود محمّلا بالخضار والغلال والسمك، فتعترضه زوجته ضاحكة مبتسمة، وهي تتودد إليه، وتستشيره حول الغداء والعشاء. ينهض الشيخ الهادي ككل صاحب أسرة، فتعدّ له زوجته فطور الصباح بكل حبّ وتودّعه إلى شغله أو إلى أي مكان.

هذا الإحساس لم يشعر به الشيخ علي. هربت زوجته ولم يتذوّق طعم ذلك الإحساس. رغم أن والده كان قد أسّس عائلة وأنجب أطفالا وشيّد منزلا وربّى الدواجن والخرفان والأرانب. كان والده ينهض صباحا فيجد زوجته قد جهّزت فطور الصباح. مائدة رتّب عليها البيض المسلوق والزيت والسمن والزيتون والخبز. جَهَزَته له زوجته في الساعات الأولى من الفجر. يجلس الوالد بعد أن توضّأ وصلّى صلاة الصبح. يبسمل ويحوقل ويتناول فطوره، ثم يشعل سيجارته على مذاق كأس الشاي الأحمر، قبل أن يغادر المنزل تتبعه زوجته إلى الباب. تلتفت يمنة ويسرة متمنّية له الصحة والعافية وطول العمر.." ربّي يحْرسُو من العين" تقول جملتها تلك كل صباح، ثم تعود إلى شؤونها.

أعاد الشيخ علي تشغيل هذا الشريط، وهو يستمع إلى الشيخ الهادي يحكي عن الأسرة وشؤون البيت.. حكاية لا تعنيه في شيء، أو لا يتحمّل سماع مثل ذلك الكلام عن الأسرة والعائلة التي فشل هوّ في بنائها. لقد استطاع ولو عن غير وعي في هدم عائلة، أي هو لم يستطع أن يشيّد جدران أسرة ولو كانت تلك الجدران من الطوب. صحيح أنّ البيت الذي تمنّى تشييده لم يكن بيتا باذخا بحديقة غناء وشرفات على البحر الأزرق، ولكنه رغب في بيت بسيط بجدران مطليّة بالجير وساحة أين يشاكسون الأطفال طفولتهم. طفولتهم التي لن تكون حتما كطفولته المجروحة.

ـ والله يا شيخ علي حلمتُ حلما أقض مضجعي.. ومنذ اللحظة التي نهضتُ فيها من السرير، وأنا في حالة يُرثى لها.

دون أن يتوقف عن رشّ الماء أمام الحانوت، يمسك السطل بيده اليُسرى، وبكف يده اليمنى يرفع الماء من السطل بحركة سريعة متناسقة، فيتوزّع الماء على الأرض بتناسق غريب:

ـ إن شاء الله خير

ـ العلم لله.. حلمتُ أن طائرة عسكرية فرنسية تجوب الأرجاء بأزيزها المقرف، وفجأة ألقتْ قنبلة على البلاد.

ـ يا لطيف..

وقد توقّف عن رشّ الماء، والتفت إلى الشيخ الهادي، فيما أكمل الشيخ الهادي حديثه دون أن يرفع رأسه:

ـ نهض سيدي علي المحجوب، وتلقّف القنبلة ببرنسه، قبل أن تسقط على الأرض وتُحدث كارثة بالبلاد والعباد.

ـ يا لطيف.. يا ربّ ألطف بعبادك..

ـ آش معناها يا شيخ علي؟

ـ البلاد يا شيخ الهادي تنتظرها مخاطر كثيرة وسينقذها أولياؤها. هم على بركة كبيرة. هذه بلاد سيدي بوسعيد وسيدي الصحبي وسيدي بو لبابة.. وغيرهم

ـ ونعم بالله.. والله يا شيخ منذ أسبوع تقابلت مع عبد الله الحرس في طرح "شكبة"..

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

ـ ما بك يا شيخ؟

ـ لا يهم أكمل كلامك..

ـ قلت لك، تقابلت معه في طرح "شكبّة".. وفور انتهاء حديثي عن سيدي علي المحجوب، حتى أزبد الرجل وأرعد وضرب الطاولة بقبضتيه، وألقى بالأوراق في الأرجاء، وقال كالمهدد:

ـ يا ناس.. يا عباد ربي، الشعوب فتحت في البحار الطرقات، وسيّرت المراكب في السماوات، وأنتم ما زلتم تعتقدون في الأولياء والصالحين والتمائم والمشعوذين.

قلتُ له أنهم أولياء الله الصالحون، وأنّ الله أوصى بأوليائه في القرآن الكريم. فما كان منه إلا أن دفع بالكرسي إلى الخلف ووقف كالجمل الهائج:

ـ ما زلتم تعتقدون في الترهات والحجر والحيطان والقبور. هذه الأمة لن يستقيم لها حال ما دام هذا الفكر ينتشر بين الناس والحمير.

قالها بسخرية، كمن يسبّ ويسخط ويحتقر الناس، ثم غادر المقهى دون أن أفهم سبب هذا الهيَجان والغضب، بل لم يفهم أغلب رواد المقهى، لماذا قام بذلك التصرف. حتى سي العجمي صاحب المقهى طأطأ رأسه، ولم ينتفض في وجهه كما يفعل مع بقية الرواد، بل أتى بمكنسة وسطل من الماء ليغسل أرضية المقهى التي اتسخت بفعل كأس الشاي الذي سقط من على الطاولة، حين دفع عبد الله الحرس كرسيّه وغادر.

الشيخ علي وهو يأخذ مكانه قرب الشيخ الهادي، دون أن يترك سطل الماء من يده:

مثل هؤلاء.. لا يؤمنون بكرامات الأولياء، ولا يعتقدون في قدراتهم. ألا يعلمون أنّ الله أوصى بهم خيرا؟

ومثل وليّنا الصالح سيدي علي المحجوب أكرمه الله بكرامات كثيرة..

ـ "ونعْم بالله.." يقاطعه الشيخ الهادي

فيما واصل الشيخ علي كلامه دون أن ينتبه إلى تعليق الشيخ الهادي، ومرّ على كل الأولياء الصالحين بالجهة من سيدي المسيّد، وسيدي علي البخروف وسيدي الطاهر المزوغي.. وغيرهم من الأولياء، وشرع يسرد ما علق بهم من كرامات أوشكت أن تكون معجزات. وقد وصلت قوة الكرامات إلى حدّ أنّ الوليّ الصالح سيدي المسيّد قد حوّل قطيع الخرفان إلى حجارة، حينما حاول أحد اللصوص سرقة القطيع على غفلة من صاحبه..

ـ رأى السارق الخرفان ترتع بمفردها. اقترب وحاول أن يتبيّن الأمر، حتى أدرك أن صاحب الخراف يغطّ في نوم عميق، فقرر أن يستولي على الخراف ويحولها إلى زريبته، ليبيعها لاحقا..

ـ هل صارت القصة قرب سيدي المسيّد؟

ـ نعم في الحقول المقابلة له..

ـ الأكيد أن سيدي المسيد لن يسمح للسارق بلهف الخرفان

ـ وهو كذلك يا شيخ الهادي.. بل أنّ سيدي المسيّد حوّل الخرفان إلى حجارة حتى لا يراها السارق...

ـ وماذا فعل صاحب الخراف حينما أفاق من غفوته؟

ابتسم الشيخ علي وأكمل:

ـ طبعا دُهش السارق بعدما جال ببصره في الأرجاء، ولم ير تلك الخراف التي كان ينظر إليها منذ لحظات. حتى أنه شك في وعيه، واعتقد أن حالته تلك نتيجة ما بقي في جسده وعقله من خمرة البارحة، لهذا عاد خائبا يبحث عن هدف آخر. أما صاحب الخرفان، فإنه وجدَ خرفانه كما تركها حينما أفاق، ولم يمسسها سوء.

وقد روى السارق تلك الحادثة بعد سنوات من فعلته تلك لصاحب الخراف، وكان قد تاب وصار رجلا صالحا.

ـ لو أن عبد الله الحرس يعرف كل هذه القصص، لما تجنّى على أولياء الله الصالحين.

ـ الله يرحمو

ـ من هذا الذي مات؟

ـ عبد الله الحرس.. مات مقتولا

ـ يا لطيف.. يا لطيف.. من قتله؟ ومتى حصل هذا؟ لم أسمع بالقصة.. الله يرحمو

ـ والله يا شيخ العلم لله. له أعداء كثر، كل رجال الأمن لهم أعداء، مثل هؤلاء ما إن يصلوا إلى السلطة، حتى يشرعون في الاعتداء على خلق الله بالضربا والرفسا والعدوان.. كأن الله وكّلهم وحدهم على خلقه. وزيد يا شيخ الهادي، عبد الله الحرس ـ وبصوت خافت ـ كافر والعياذ بالله.. لا يؤمن بالله ولا برسوله.. أستغفر الله العظيم

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله. من قال لك ذلك يا شيخ علي؟ ربما افتراءات على الرجل.. هذا كلام خطير

ـ هذا الرجل لا يؤمن بالأولياء ولا بالصالحين، ويقولون والله أعلم أنه لا يصوم شهر رمضان.

ـ والله ممكن، أنا لم أره ولو مرة يدخل إلى المسجد..

ـ يرحم والديك.. هاك قلتها

ثم ينتفض من مكانه محاولا أن يواري قسمات وجهه، متظاهرا برش الماء أمام الحانوت، لتفادي الغبار، ولتفادي أسئلة الشيخ الهادي المحرجة.

الشيخ الهادي الذي لا يعلم كالكثيرين أنّ عبد الله الحرس هوّ من ساعد زوجته على الهروب مع ابن عمها بعد مدة قصيرة من زواجه بها..

وهو في الحقيقة لا يعرف من أين جاءته هذه النقمة على الرجل وهو ميّت. هو لم يقم تجاهه بأي تصرف عدوانيّ، بل لا تربطه به أي علاقة من أي نوع. ولو عدّ المرات التي التقاه فيها لما تجاوزت عدد أصابع اليد الواحدة.

ولكن هو عبد الله من ساعد زوجته على الهروب. هكذا قيل له، ولكنه ليس متأكّدا.

قيل له أن زوجته وهي تحاول الهرب على متن شاحنة قديمة مع التيجاني ابن عمها، الشاحنة كان يقودها أحد المعروفين بسوابقهم الإجرامية، كان يقوم بمهمة نقلهم إلى مدينة مجاورة. تمّ إيقافهم في مفترق الطريق الذي يؤدي إلى مدينة الشابة، حيث كانت توجد دورية للحرس الوطني تقوم بعملها الروتيني، وكان من ضمن العناصر عبد الله الحرس. قيل له والعلم لله أنّ عبد الله الحرس يعرف زوجة الشيخ علي، بحكم الجيرة، ويعرف ابن عمّها، وأن وجودهما في تلك الساعة المتأخرة من الليل، يثير شبهة ما، ولكن عبد الله الحرس لم يتصرف كرجل أمن، وكأنه كان يعلم مسبقا أن زوجة الشيخ علي ستهرب مع ابن عمّها، لهذا عند إيقاف الشاحنة في

تلك الساعة المتأخرة من الليل، لم يطلب من التيجاني أوراق الهوية ولا أوراق الشاحنة، ولا تساءل عن علاقة التيجاني بزوجته، وعلاقتهما بصاحب الشاحنة المعروف لدى الجهات الأمنية كصاحب سوابق. في الوقت الذي كانت الشاحنة تثير شبهة أي رجل أمن عادي، فما بالك بشاحنة كتلك التي يقودها ذلك الشاب، ومعه إمرأة بكامل زينتها و"حنتها"، ولم يمض على زواجها أكثر من شهرين، وفي وقت متأخر من الليل..

هكذا قيل للشيخ علي، ولا يعرف هو نفسه من هو المصدر الحقيقي للمعلومة، المهم أن تلك المعلومة رسخت في ذهنه ولم تفارقه، ولم يستطع أن يتخلّص منها.

الغريب أن صاحب الشاحنة يعرفه الجميع. وأن الشيخ علي بحث في كل الشوارع والأزقة عن شاحنة بتلك المواصفات، فلم يجدها. ولا أحد أمكن له أن يصرّح بهوية صاحب الشاحنة. كان كلاما وما زال يُتداول بين الناس، ولكن لا أحد من الناس يعرف صاحب الشاحنة ولا رأى الشاحنة. وحتى الشخص الذي قيل أنه هوّ نفسه المعنيّ بالحادثة، لا أثر له ولم يُعثر عليه إلى الآن. هل غادر البلاد، أم تمّت تصفيته من قبل التيجاني، حتّى لا يكون شاهدا على الحادثة؟ لا أحد استطاع إلى الآن فكّ ذلك اللغز.

(3)

الشيخ علي عاش طفولة عادية، إلى أن حدث ما عكّر صفوها.. أدخله والده إلى الكتاب، حتى حفظ القرآن كله، ورغم مظاهر النبوغ البادية عليه، إلا أن والده فصله من الدراسة، بعد وصوله إلى السادسة ابتدائي، ونجاحه بتفوق حيث انتشر خبر نجاحه في كل المدينة بعد نشر

قائمة الناجحين في جريدة "الابراس".

وبسبب التكاليف الباهضة، وعدم قدرة والده على توفير تلك المستلزمات، انقطع عليّ عن الدراسة. ولكن يبدو أن أسبابا أخرى كانت وراء انقطاعه، وليس الصعوبات المادية لأسرته، بل أن الأب كان يخاف من غيرة أبنائه الثلاثة الذين لم يوفقوا في دراستهم، فاضطر إلى منع ابنه علي من الالتحاق بالصادقية، وبدل ذلك ألحقه بحانوت العم حسونة، يساعده في شغله مقابل بعض الملاليم.

ما زلت أذكر ذلك اليوم. لم يكن يوما ككل الأيام التي عشتها في حياتي. عاد والدي باكرا على غير عادته، ولكن القفة التي كان يحملها كانت مثقلة تشي أن حدثا ما سيُحتفل به. القفة ملأى بالخضار والكاذغ الخشن لُفّت فيه كمية كبيرة من اللحم على غير العادة. حين أطل من باب المنزل استقبلته أمي بمشيتها العرجاء المستعجلة، وفي نظرتها للقفة أسئلة حيرى. بادرها والدي بالكلام، وكأنه قرأ الأسئلة الحيرى في نظراتها "هيا مبروك". شعّ البريق الكامن في داخلها، وقفز إلى الفضاء العاري، ابتسمت.. حدّقت في وجه والدي تبحث عن تأكيد لكلامه، ولكنها أيضا مدّت كف يدها إلى فمها، لترفع في الأرجاء الزغاريد كأنه الآذان تَردد صداه في الحيّ وفي الأحياء المجاورة.

خرجتُ مسرعا من قنّ الدجاج، حيث كنت أخاتل الديك الروميّ لأدفعه كي يُثبت رجولته أمام الدجاجات، ولكن دون جدوى. خرجت ملطّخا بأوساخي التي تظل تتراكم منذ الصباح حتى آخر المساء حين يُفرض عليّ وقت النوم.

ناداني الوالد وضمّني إليه دون أن ينحني ليُقبّلني، بعد أن أكملت أمي آخر نفس في جعبتها بفعل الزغاريد. "ولدي مبروك"، لم أفهم ملاحظته، ولماذا يقول مثل ذاك الكلام، ولكنه تلقّف حيرتي، وعلّق:

ـ مبروك.. نجحت في الشهادة والخبر تصدّر اليوم جريدة "الابراس".. قرأه لنا هذا الصباح السيد بن نجيمة معلّم الفرنسية.. الخبر صدر منذ أمس ولكن الجريدة التي نزّلوا فيها الخبر وصلتنا اليوم من العاصمة.

إبتسمتُ قليلا، وأنا أتأمّل ملامح والدي التي غطتها مسحة من القتامة وهو يحاول أن يخفيها، ولكنني اقتنصت أيضا، الدمع يترقرق في حدقاته قبل أن يُدير وجهه مغادرا وهو يسحب سيجارته من العلبة الحديدية التي لا تفارقه. أعاد العلبة إلى جيبه. توقف بعض اللحظات ليشعل السيجارة، ثم واصل سيره وهو ينفخ في الأرجاء كقطار بخاريّ.

كمّ المشاعر التي إجتاحتني كجيش، لم أقو على تفكيكها.. خليط من الفرح الباطنيّ الذي أبى أن يخرج إلى العلن، وحالة من الخوف والترقب والشجن لاحظتها تترقرق في عيون والدي حتى فضحته حين فاضت ومسحت كامل وجهه. لأول مرة عسر عليّ تفكيك تلك الحالة، هل هو الفرح بعد نجاحي في شهادة السيزيام ؟ أم حالة من الريبة والشك، لم أستطع أن أجد لها تفسيرا؟ لهذا عدت إلى القنّ أدرّب الديك الروميّ على أن يكون فحلا.

لم تقنعني أبدا تبريرات والدي حول حالته الماديّة التي حالت دون إلتحاقي بجامع الزيتونة أو الصادقية، ولكن عمري لم يسمح لي حينها أن أناقش الأمر أو أرفضه. تقبّلتُ الأمر وواصلت حياتي بين المسجد وحانوت العم حسونة.

ظل علي لسنوات على تلك الحال، بين حانوت العم حسونة والمسجد ومنزلهم. وظل والده يحميه من إخوته ومن أنداده الذين لا يفوّتون أي فرصة من أجل ضربه واحتقاره والسخرية منه بسبب ودون سبب. ولم يفهم لسنوات لماذا يصرّ هؤلاء على احتقاره، ولماذا يصرّ والده على حمايته واصطحابه في كل تنقلاته. ولكن الحادثة التي حدثت له جعلته يدرك معنى ذلك الخوف وتلك الريبة.

لقد كان للأب ما يبرر ذلك الخوف، ولا أحد ـ إلا القليل ـ يعرف تلك المبررات. غير أن الأهل والجيران لم يفهموا كل تلك الحيطة الزائدة، حتى مع حصول تلك الحادثة التي حوّلت حياة علي ووالده إلى جحيم، وصار علي في عيون أهله مسخرة يشار إليه بالبنان.

غيّر ذلك الجرح في علي أشياء كثيرة، وقلبت حياته رأسا على عقب.

كان ذلك اليوم، يوم خميس. الحرارة فيه لا تعين الطير حتى على التحليق. يوم كأنّ أبواب جهنّم فُتحت على مصراعيها. الطرقات خالية من المارة، وحتى الكلاب مستكينة إلى ظل حائط أو ظل شجرة، تمرّغ أجسادها الخلفيّة في حفر باردة، وتمدّ ألسنتها بأفواه لاهثة مفتوحة، تنفخ هواء حارا ونتنا.

أكمل علي حصّة الكتّاب الصباحية. اصطف مع بقية التلاميذ حول آنية ماء من الفخار، لمحو ما كتب على اللوح الخشبيّ من آيات كانت معدّة للحفظ. كانت الأيادي الصغيرة تمتدّ إلى آنية الماء وتفرك بتراب أصفر وجه اللوحة حتى تعود إلى أصلها صافية دون مداد يشوبها.

يكمل التلاميذ محو اللوحات، ثمّ يتركونها تتكئ على الحائط في الشّمس تجفّ، ثم يغادرون إلى منازلهم، فيما يتكفل الشيخ "زنّاد" بجمع اللوحات ورَكْنها في غرفة منفصلة، في انتظار الحصة القادمة.

اليوم لم تنل الفَلقة من قدميّ، فقد أكملت ختم القرآن الكريم. سأعود إلى والدي وأعلمه أنني ختمتُ القرآن، وسيُعلمنا المؤدّب بتاريخ الحفل الذي سيقام في زاوية سيدي علي المحجوب، ليلة نصف رمضان. وسأعلم والدي أنه سيقع تكريم التلاميذ النجباء ممن ختموا القرآن، وممن تقدموا شوطا في حفظه.

انطلقتُ كالسهم من الباب الخشبي الكبير للمسجد، رغم حرارة الطقس أنطّ كقطّ أتجاوز الحفر والحجارة. أقفز على عتبات البيوت والحوانيت، كان يلزمني ربع ساعة من الركض لأصل إلى بيتنا في طرف مدينة قصور الساف.

وأنا أعبر حومة "الطفّالة" التي تفتح على غابة وارفة متشابكة بالكاد يعبرها الإنسان لصعوبة مسالكها، غابة تتكئ على منحدرها مقبرة المدينة. الحيّ عرف بمشاكله، وخشونة سكانه، وكثرة العراك فيه. وهو ملجأ للسكارى والمنحرفين. فور قطع نصف مسافة الشارع، خرج عليّ شابان من بين أشجار الغابة الوارفة، وارتموا عليّ كذئاب جائعة.

ـ أهلا بالرجل.. هههه

.....-

ـ هاك كبرت يا تَحْفون، يَلزم نَفرحوا بيك

..... -

كان أحدهما يؤرجح قارورة خمر خضراء أوشكت على النفاذ، ويمسك بيده اليمنى سرواله كي لا يسقط.. فيما السيجارة تتوسط شفتيه، وهو يحاول أن يتكلم دون أن أفهم ما يقوله، عدا تأتأة أو أصوات من وراء السيجارة التي يحاول أن يعضّ عليها بأسنانه كي لا تسقط.

فيما أمسك بيَ الثاني من رقبتي ويده الأخرى على فمي، وظل يجرني كالشاة. وبين الحين والآخر أشعر أني أرتفع إلى أعلى وتبتعد ساقاي عن الأرض. لم أستطع أن أصيح أو أبكي، فقط كنت أخبط الريح خبط عشواء، حتى أنتزع الشبشب من قدمي، وقد حاولت جاهدا أن أعضّ عليه بأصابعي قدر ما أستطيع دون جدوى. فما زلت أذكر آخر مرة أضعتُ فيها فردة قبقابي في عرس أحد أقاربنا، فأشبعتني أمي ضربا حتى صرتُ أدسّ القبقاب أو الشبشب تحت وسادتي، مخافة أن يطل الغول عليّ وأنا في سبات عميق، فيسرقه مني.

ما زال يجرني كخروف صغير إلى أكمة، وما إن وصلها حتى دسّ وجهي في جذع الشجرة، بعد أن رفع جبتي الصغيرة وفكّ رباط سرواله، وبدأ يدفع في دبري شيئا غليضا بعنف. يحاول وهو يتلوى ويثني ساقيه حينا ويسحبني إليه أخرى، حتى شعرت أنّ شيئا ما دخل في مؤخرتي كإسفين.

لحظتها كمن دقّ في قلبي مسمارا، وأحسست بأوجاع في بطني حتى انتقل إلى رأسي. ظل ذلك التيار يتدفق حتى تحوّل إلى صيحة أجبرت الغول الممسك بي أن يبعد يده، بعد أن تمكنتُ من عضّه. أعاد الإمساك بي من جديد، حتى شعرتُ بجسده يرتعش كمن أصابته صعقة كهرباء، وشعرتُ بحرارة بين فخذيّ وسال ما يشبه اللعاب اللزج أو الدم الحار. أحسستُ بأوجاع تمزّق كل أرجائي، ودوار وقيء، حتى فقدتُ الوعي، ولم أعد أتذكّر بعدها شيئا.

لم أتذكّر هل واصل ذلك الغول فعلته الشنيعة؟ أم ترك الأمر إلى مرافقه؟ أم تركني ملقى كشاة نافقة؟

حين أفقتُ كان الوجوم يصبغ وجوه الحاضرين الملتفّين حولي، وأنا مُلقى على حصير وسط غرفتنا.

لم أستوعب الذي حصل في تلك القيلولة، ولكنني فهمت من نظرات أفراد العائلة، أنّ كارثة ما حلّت بنا، وأن ما حصل لي مصيبة كبرى. ما زالت الدموع تترقرق في حدقات والدي. أراها تلمع بانكسار شديد. أرى وجهه كجدار قديم باهت دون ألوان. وأرى الدمع يسقط حبّة بعد أخرى كقطع من الحجارة الصمّاء.

نعم إني أراها بوضوح كما أرى أيّ شخص أمامي. أما وجه أمي، فكان أشبه بكاغذ بنيّ خشن. كانت تسند ظهرها إلى الحائط، وتعضّ بأسنانها على غطاء من الصوف كان يغطي رأسها.

أمّي التي لم أر وجهها بذلك الشحوب كما رأيته الآن. زاد اصفرارا وبانت التجاعيد أكثر من ذي قبل. رأيت ذلك الوشم في أسفل ذقنها أقل وضوحا، رأيت عيونا زائغة ثابتة في اتجاه زاوية واحدة، كمن يترصّد هدفا.

أمي التي لا تتكلّم إلا لماما، كثيرة الحركة لا تتوقف عن أداء شؤون البيت، لكنها تتحرك كالنحلة ضاحكة منشرحة مقبلة على الحياة كأنها تمسك العالم بين يديها. لا تسمعها إلا من أجل أن تطلب خدمة من والدي أو تستدعينا إلى مائدة الغداء أو العشاء. ما أراه الآن ليس سوى بقايا جثة ملقاة في مقبرة بين الأموات.

أما أخوتي، فكانت نظراتهم مزيجا من السخرية والشفقة، أو ربما مزيجا من الكره والنقمة كما رأيتها في نظرات أخي لطفي خاصة.

فأخي الأكبر هذا، كثيرا ما يعاملني معاملة قاسية، حتى أنني أشكّ أحيانا كثيرة أنه أخي، أو بالأحرى أننا لسنا من صلب واحد.

أذكر مرة أنه صفعني صفعة شديدة، كدت أن أفقد وعي من شدة قوتها. سقطت على الأرض وشعرت بدوار وغثيان. كان السبب بسيطا لا يستدعي تلك العصبية الزائدة. لقد اصطدمتُ عفويا بقفص "المقنين"، فسقط وارتعد العصفور، وطار البعض من ريشه، وصار ينتفض داخل القفص. لم يطر العصفور، و مع ذلك أكلتُ صفعة، كادت تفقدني وعيي:

ـ حلّ عينيك، والدين بوك

ـ والله لم أقصد

ـ العمى.. والله كان طار العصفور راني قتلت والدين أمك الكلبة

وصفعني تلك الصفعة، حتى فقدت وعيي، وسقطت أرضا.

انحنى على القفص يعيد ترتيبه، وحمله إلى جدار آخر في المنزل، حيث دق مسمارا غليضا وثبت القفص هناك.

ظلت نظراتي تمسح الوجوم المرقرق في عيون الحاضرين وهم يجلسون بجانبي. نظرات تحاول أن تثبّت صورا لأحداث ومشاهد عشتها. مقاطع فيديو لسوء المعاملة التي أعانيها من إخوتي، وخاصة لطفي. نظرات ترتعد بين وجوه أولئك الذئاب التي نهشت لحمي وألقتني كعلبة بيرة فارغة. ظلت الوجوه تأتي وتغيب وتراوغ. تصبح أكثر وضوحا، أو أكثر ضبابية، وقد تختلط الوجوه بعضها بالبعض فتنتج ملامح أسطورية موحشة، تشبه الموت أو الأسطورة.

ظلت نظرات الأهل تنهشني، وأحسست أن نظرات العالم تتفرسني وتسلخ جلدي. لست متأكدا أن الخبر لم ينتشر بين أهل القرية، ولكن كلما اعترضني أحدهم في الشارع، أطأطئ رأسي وأضمّ ساقيّ وأتحسس مؤخرتي. صرت مثل طائر "المقنين" الذي اصطدمت به فارتبك وتساقط البعض من ريشه، و صار بفعل تلك الحادثة متشنجا وعصبيا، يتحرك في قفصه بارتباك شديد دون وجهة. ظل على تلك الحالة ينفر من أي زائر أو عابر قربه، بل لم يعد يأنس حتّى لصاحبه لطفي. ظل على تلك الحال بعض الأيام حتى مات موتة شنيعة. مات ورأسه يتدلى داخل كأس الماء المرتّب داخل القفص.

نهاية بمثل تلك النهاية جعلتني كثير الارتباك متشائما، تأتيني بعض الأفكار كنحل هائج داخل أذني، توعز لي بأنّ نهايتي ستكون كنهاية ذلك العصفور المسكين.

ظلت تلك الحادثة تنهش نفس وروح الشيخ علي، وبقيت وصمة عار في طفولته المجروحة.

ولما أوشك أن يتناساها، وينسى وجه ذلك الشاب صاحب الفعلة الشنيعة، حصل ما أعادها إلى الواجهة بأكثر شناعة، وعاد وجه ذلك الشاب صاحب الفعلة متجليا أمامه في كل ركن من المنزل، وفي كل زاوية من الشارع. هذه المرة كان علي ضحية شقيقه لطفي.

لطفي أكبرنا سنّا، ولكنه أيضا أقسانا وأشدنا حدّة. هو منطو على نفسه.. حاد الطباع.. لا يتواصل مع الناس إلا في المسائل الضرورية. لهذا لا أصدقاء له، وبالكاد يتواصل مع العائلة. يقتصر تواصله على جلسات الأكل لا غير ونادرا ما يتواصل معهم أثناء السهر. لطفي الذي لم يتجاوز الثانية ابتدائي بعد تكرار هروبه من المدرسة.. يختفي خلف سور المدرسة حتى يرنّ الجرس ويدخل التلاميذ إلى أقسامهم، ثم يتجه راكضا متسكعا في الأحياء والأزقة المجاورة، ثم يعود آخر النهار. قضى ثلاث سنوات في نفس السنة، وغادر التعليم نهائيا، ليسخّر كلّ جهده لاصطياد العصافير وإيداعها الأقفاص. يجبرها على التزاوج والتكاثرن ليبيعها في السوق الأسبوعية بثمن لا يساوي ثمن علبة سجائر.

لطفي الذي لا يقوم بأي شيء في حياته. حتى بعد مغادرته المدرسة، ظل يأكل ويشرب ويتغوط، ويربي الطيور. حتى أطلق عليه الوالد "الكانالو" لأنه لا شيء يهمه غير ترتيب شعره الطويل والإعتناء بطيور الزينة. يُربّيها ويجمع الذكور بالإناث ليتوالدوا ويزيد من عدد الأقفاص. وأحيانا كثيرة يأخذ بعضها ويصعد إلى السطح ليتركها تطير في الأرجاء بحثا عن عالم أرحب. مثل هذا التصرف يجعلك تتساءل عن الشخصية المتقلبة لهذا الشاب. فهو حاد الطباع قاسي القلب مع البشر، طيب حنون مع الطيور.

ذات شتاء لن يُمحى من ذاكرتي، كانت ليلة باردة. الأمطار لم تتوقف لمدة فاقت الأسبوع، وزاد الهواء البارد في قساوة الطقس وضاعف من الآلام التي تضرب في المفاصل. لم يخرج الفلاحون إلى أراضيهم، ولم تخرج قطعان الماعز والخرفان إلى المراعي كعادتها، وحتى التلاميذ حرمتهم الأمطار من الالتحاق بالمدرسة الوحيدة في المدينة، وبالكتّاب الذي يتولى أمره منذ سنوات الشيخ زناد. الأمطار تسببت في انقطاع السبل وتراكم المياه، رغم استبشار الناس بالغيث النافع وشعورهم بالغبطة. الأمطار أمل الناس وشرفتهم على الحياة.

كل العائلة كانت تجمعها غرفة واحدة. يتكئ أبي كعادته في نفس المكان على مرفقه، ملتحفا ببرنسه الذي بدأ يهترئ بفعل الزمن. يردّد أغنية، أو شيئا يشبه الأغنية، يرددها بين الحين والآخر، دون أن يلتزم بنفس اللحن أو الكلمات.

يرفع صوته قليلا أو يخفضه حسب حالة الانتشاء والتفاعل مع الأغنية، بل أحيانا تُصلح له أمي بعض الكلمات، أو تذكره بكلمة أو جملة. فالأغاني من تراثنا الذي يعرفه الكبار، ويتعلمه الصغار، وهي نفس الأغاني التي يرددونها في الأعراس والمناسبات. والدي يبتسم أحيانا حين ينسى بعض الكلمات، فيتمتم متظاهرا أنه يرددها بصوت خافت، يَفهم أننا انتبهنا إلى ذلك، فيُدير رأسه إلى الحائط، أو يرفعه إلى السقف حتى تبين أسنانه الصفراء، ثم يسحب علبة "الحلّوزي"

ويشعل سيجارة، ويظل ينتظر كأس الشاي الذي تمده له أمي وهي تبتسم، كلما أعجب والدي بتلك الطبخة العجيبة، من الشاي التي لا يتقنها أحد غير "أم الأولاد" كما يقول والدي كالمتباهي:

ـ يرحم والديك في ها الكأس

ـ تعيش سي عبد الحميد

فيما كان والدي يردد كلمات غير مفهومة، كانت أمي تغزل صوفها وتُنقّيه من شوائبه، وهي تتفقّد برّاد الشاي من حين إلى آخر، لتضيف إليه بعض الماء أو السكّر أو تضع بعض الفحم في الكانون الذي يوشك أن ينطفئ.

كان لطفي كامل الليل متربعا أم قفص المقنين، يرتّبه ويزيل شوائبه الكثيرة دون أن ينتبه أن تلك الأوساخ تدحرجها الريح النافذة من تحت باب الغرفة وتوزّعها على كامل أرضية البيت. بين الحين والآخر يرمقه والدي بنظرات التأنيب واللوم دون جدوى، فيتأفف والدي ويعود إلى سيجارته وكأس الشاي.

ليلتها كنتُ مستلقيا على بطني أرتب بعض القواقع وأوزعها على قطعة من اللوح، في أشكال لا أعرف معناها، وأحيانا ألقيها كقطع النرد، وأعيد توزيعها. حتى بدأت أشعر بالنعاس يتسلل إلى كامل أعضائي، ويتسلل إلى شراييني ويدغدغ أطرافي.

بعد أن نبّهتني أمي أحسستُ برعشة باردة تتسلل إلى عيوني، وحُرقة دفعتني إلى أن أغادر الغرفة، في اتجاه غرفة الأولاد، بعد أن وخزتني أمي عدة مرات حتى أنهض وأسرع في اتجاه الغرفة ماشيا على قدميّ، حتى لا تضطر هي إلى أن تحملني في حضنها، كما يحصل أحيانا كثيرة.

غرفة الأولاد، هي الغرفة الأوسع في منزلنا القديم. غرفة الأولاد بها سدّة مجوفة من اسمنت، تخفي أمي تحتها ما زاد عن الحاجة من ملابس وأشياء أخرى.

تسلّقت السدّة العالية، بعد محاولات عديدة، و كالعادة أمسكت بالحشيّة المحشوّة بالصوف، ورفعت جسدي إلى أعلى، ثم انثنيتُ كقطة في حضن صاحبتها. سحبت الغطاء الصوفيّ وتململتُ حتى أتموضع جيدا وأجد لجسدي النحيل مكانه المناسب.

لحقني شقيقي لطفي، وقفز قفزة واحدة كانت كافية لأن يأخذ مكانه على السدّة العالية. دسّ جسده بجانبي، وظل يمرر يده على جسدي، حتى شعرتُ بقشعريرة، حاولتُ كتمها أو سحبها عنوة من بوتقة اللاوعي. ولكن خوفي من شقيقي لطفي، دفعني إلى أن أبقى محافظا على مكاني دون أن أبدي أي حركة.

افتح عيناي وأطبقهما بعنف، محاولا مقاومة قشعريرة سرتْ في كامل جسدي دون جدوى. خلع سروالي الصغير، ودسّ عضوه الذكريّ في مؤخرتي، وظلّ يتأوّه حتّى أحسست بشيء ساخن يسيل بين فخذيّ. ثم انسحب دون أن ينبس ببنت شفة.

بقيتُ دقائق طويلة لا أحرّك ساكنا، يجتاحني القيء والخوف والرهبة. ومشاعر أخرى متضاربة لم أستطع فكّ طلاسمها. ظللت جامدا في مكاني دون حركة تتقاذفني أمواج البحر الهادر، وصفير الريح يتحول عناكب تنهش جمجمتي، وتفتش في جيوب الذاكرة عن تلك الصورة المجروحة بين فخذيّ، في غابة حومة "الطفالة" طرف القرية. حضرت وجوه عديدة بسمات مشوّهة، وحضر الخوف والرعب، ووجه ذلك الوحش الذي دسّ قضيبة في مؤخرتي. ارتخيت ككيس من التبن الفارغ في الفضاء الأجوف، وأسلمت روحي إلى النوم.

ظل لطفي يكرر تلك الفعلة، بين فترة وأخرى، وظللتُ أحاول التهرّب منه، أو إيجاد الأعذار لأبقى ساهرا مع العائلة، علّه يسبقني إلى الفراش فيغلبه النوم. صار يكرر فعلته متى شاء وكيفما شاء. كان ذلك منذ خمسين عاما ونيف. ولم أتخلّص من كابوس لطفي إلا حين تمّت دعوته لأداء الخدمة العسكرية، وودعته أمي بالبكاء وسطل من الماء سكبته وراءه، وهي تبسمل وتحوقل.

ورغم أنّ والدي بذل ما في وسعه لكي ينقذ لطفي من الخدمة العسكرية، إلا أنه لم يفلح. استضاف "العمدة" أكثر من مرّة لتناول العشاء معه في المنزل، وجهزت لهما أمي ما لا تستطيع أن تجهّزه أي امرأة أخرى، بل ودس والدي في قفة العمدة فرخين من الدجاج، وبعض البيض الذي ظلّت أمي تجمعه لأسابيع من أجل ذلك اليوم. كما أهدى إليه كبشا بمناسبة عيد الأضحى. كل ذلك من أجل أن يتوسط لأخي لطفي، وألا يُضاف اسمه إلى قائمة من سيقع دعوتهم لأداء الخدمة العسكرية.

ـ ما يحلّ المشكلة كان العمدة

ظل والدي لأشهر يكرّر تلك المقولة السحرية لاعتقاده الراسخ أنّ العمدة بيده الحلّ والعقد. وأنّه وحده بأمكانه أن يشغّل عاطلا، أو يسهّل لمسافر سفره، أو ينقذ شابا من الجنديّة. العمدة فقط يملك كلّ تاريخ المنطقة وحال أهلها. وله القدرة على تصنيف الناس إلى موالين ومعارضين، حتى يستطيع أن يوزّع المساعدات التي تمنحها الدولة حسب منسوب الولاء.

ظل لطفي يتأخر في كلّ مرة عن إنهاء خدمته، من سنة إلى سنتين، بعد جملة من العقوبات التي قضاها في الجندية، في كل مرة يقع ضبطه في حالة شذوذ مع جندي آخر، حتى لصقت به كنية " لطفي طفارة".

أما أنا فتعمّقت جراحي، بل وصارت غائرة جدا. صارت كبئر غائرة في العتمة والضياع. كأنها بئر محفورة في اتجاهات متعددة، وليست في اتجاه قلب الأرض. في ثنايا تلك الشعاب الملتوية تجد جراحي تنزف دما وقيحا وأشياء أخرى رمادية اللون تعكس روحي المذبوحة مرتين

كفرخة في العراء. مرة تحت أشجار غابة مجروحة على يد قتلة، ومرة ثانية في فراشي بسلاح الأخوة. جرحان لا يشفيان ولن أثق في كل الأدوية التي سأضمخ بها تلك الجراح.

(4)

اليوم الذي رجع فيه لطفي من الجندية، لم يكن يوم أفراح وأعياد على غرار كل عائلة يعود ابنها من بركة الموت، حيث تقوم العائلة بتقديم الولائم والذبائح. ذبائح النجاة من المحرقة والسلامة والإثم والخطيئة.. ذبيحة "الطفارة" السنوية.

لم نستقبله بالزغاريد وبالأحضان، فقد كان والدي ممددا على فراشه يصارع اللحظات الأخيرة من عمره. صار نحيفا وباردا وتغيرت ملامحه. بدأتُ أرى سكرات الموت تحوم حول جمجمته. كانت المرّة الأولى التي أرى فيها هيكلا. أنا قلت هيكلا ولا أعني جبل الهيكل حتما، ولكن أقصد هيكلا عظميا تغطيه قشرة من الجلد البنيّ الأقرب للرمادي، والتجاعيد تغطي كامل مساحته المهترئة. وصار البياض الذي يغطي شعر لحيته أكثر وضوحا. ذاك البياض الذي لم أكتشفه إلا لحظتها. كان والدي مهتما بهيئته، ولا يترك لذلك الشعر فرصة للظهور. يحرص كل يوم خميس أن يحلق لحيته، حتى يكون جاهزا لصلاة الجمعة. يتعطر صباح الجمعة ويغيّر ملابسه كاملة، ولا ينسى أن يوصي أمّي بأن يكون الغداء مميزا خلافا لبقية أيام الأسبوع.

وصل لطفي بعد أن أكمل مدّة التجنيد. عاد والعائلة تشهد منعرجا خطيرا في هرمها وتركيبتها. الأب يصارع سكرات الموت، وهو يستعدّ لمغادرة هذه الدنيا تاركا عائلة من أربعة أطفال وأمّهم. وهو كغيره من العائلات البسيطة والفقيرة، لن يترك وراءه عدا شجيرات من الزيتون بعمر هذه الأرض الجرداء، وبعض الخراف التي لا يكفي ثمنها لتشييد غرفة أخرى في هذا المنزل المتداعي.

ابتسم والدي إبتسامة مُرّة، وهو يرى لطفي رافعا له يده كي يمسك بها. شدّ لطفي بيديه على أصابع والدي النحيلة، ورأيتُ للمرة الأولى دموع والدي تتدحرج إلى وسادته لتبلّل قماشها الخشن، دون أن يصدر صوتا.

أمي ظلت جالسة على حافة السرير تبلع ريقها بمرارة، فيما ترقرق في عيون أخوتي لطفي وسالم ورضا، وجع وخوف وكلام لا يقدرون على ترجمته إلى لغة أو إشارات.

رفع والدي بصره إلى السقف، كمن يريد أن يتأكّد من جاهزية السقف ليقوم بدور حماية أسرته بعد أن يفارق هذه الدنيا. رفع بصره بكبرياء منكسر، ثم وجّهه إليّ كمن يصوّب مدفعا رشاشا نحو هدف عسكريّ، وقال بصوت أجشّ:

ـ اسمعوني.. قَبل أن يأخذ الله أمانته. عليّ أن أطلعكم على حقيقة أخفَيتُها عنكم لسنوات. حقيقة مُرة وثقيلة أصْدحُ بها للمرة الأولى. حقيقة ظلت تُثقل كاهلي لسنوات طويلة. عليكم أن تعلموا أن هذه الدنيا لا أمان بها، وأن ما لا تعلمونه عنها أكثر آلاف المرات مما تعلمون. لذلك لا تستغربوا

من أشياء تسمعونها ولا تروق لكم، ولا تكفروا بأشياء أخرى لا تؤمنون بها. يكفي لتتعلّموا أو تعلموا أن كل الحقائق تنتهي إلى هنا.. إلى هذا المكان. عفوا إلى ذلك المكان، أعني تلك الحفرة التي سيزورها كل البشر، حاملين حقائقهم وأسرارهم. التراب هو البداية والنهاية. منه خلقنا وفوقه نعيش وتحته نموت لنعيش حياة أخرى.

ذهلت وأنا أسمع من والدي مثل هذا الكلام للمرة الأولى. لم يسبق أن تكلّم معنا بمثل هذه اللغة الإشارية القريبة من الحكم الفارسيّة التي صادفتها عند "بيدبا" الفيلسوف في كتاب كليلة ودمنة. ظللت مذهولا أحاول أن ألحق بمعاني تلك الكلمات وهي تتراكض مسرعة، إلى أن أتبع كلامه المهترئ الخافت، بكحّة مجروحة خرجت من أعماقه الغائرة في الظلمة، ثم أكمل بعد أن سحب نفسا عميقا، وهو يلتفت إليّ:

ـ اسمع يا ولدي علي، يلزمك أن تعرف أنك.. أنّك.. أنّك لسْتَ ابني. أنت.. أنت ابن أخي.. نعم انت إبن أخي.. هذه هيّ الحقيقة.. هذه هيّ الحقيقة التي أخفيتها عنكم لسنوات.

تغيّرتْ ملامحه، محاولا أن يمنع دموعه من الإنحدار إلى تلك الوسادة الخشنة. الدموع لن تنزل حتما، حتى وإن حاول أن يدفعها إلى الخارج. الجسد جفّ وانطفأ ولم يعد به ما يجعل منه جسدا حيّا.

أجبته مصدوما:

ـ ما معنى لست إبنكَ؟ أنت تمزح.. أنت تمزح، أليس كذلك؟؟

ظل والدي يسرد قصتي وحقيقة والديّ، وهو يُصارع الموت ويغالبه، حتى سحب نفسا عميقا مصحوبا بشهقة حادة. انفتحت عيناه على آخرهما وأسلم روحه، فمال رأسه قليلا جهة اليسار ليرتخي كامل الجسد ككيس فارغ. فيما ظل شقيقي لطفي يمسك بيده التي ارتخت، وانسحبت منها الحياة.

لا أعرف ما الذي أتى بعم حسونة العطار لحظتها، ولكنني رأيته يسحب الغطاء على جسد والدي، بعد أن مسح على وجهه ليغمض عينيه، قائلا إلى بقية العائلة:

ـ أتركوه.. أتركوه قليلا حتى يفيق من الصدمة.

كان يعنيني بالكلام لحظتها، ولا أعرف هل سمع ذلك الحوار الذي دار بيني وبين والدي، أم أنه يعلم تلك الحكاية من قبل، وقد كلّفه والدي بأن يقوم بتلك المهمّة.

خرجوا، وتركوني ملقى كحجر ثقيل على ضفة بحر تلسعه الرياح وتلطمه المياه المالحة.. لم أستوعب ما قاله والدي.. هو ليس والدي .. آه نعم قالها.. قال أنني لست ابنه.. أنا ابن ذلك

السكير.. ابن أخيه ناجي. أنا لست ابنه.. أنا ابن ناجي الذي تركني في العراء. تركني ابن عام وذهب إلى السجن. هههه .. وأمي؟

آه.. أمي قَتلها ذلك النّذل أبي، بعد أن عاد مخمورا كعادته، ظل يلسعها بحزام بنطاله الجلدي، وهي تصيح وتصرخ هاربة منه، حتى تعثرتْ وسقطت في بئر جارنا، وهي تحاول أن تستجير به. نعم سقطت في ذلك البئر العميق، ولا أحد من الجيران حاول إنقاذها. إنقاذ ماذا؟ والرجل يرغي كجمل هائج، ويدور على نفسه دوران الكلب المسعور، وهو يسب ويلعن "يلعب بو والديها"، حتى بعد سقوطها في البئر.

سيق الوالد السكير إلى السجن، بعد أن أخرجوا جثة أمي التي لا أعرف صورتها. النذل قتل أمي وشردني.. صرت "ميبونا" عند أولاد عمي الذين كنت أعتقد أنهم إخوتي.

النذل ابن النذل.. هل يمكن أن أذكرك بخير أو أترحّم عليك، وقد متَّ في السجن شرّ ميتة.

لا أذكر لحظتها وأنا مُسجّى أمام جثة والدي ـ الذي هو عمّي ـ هل كنتُ أبكي لفقدانه، أم أبكي من أجل حقيقة صادمة.

مسحتُ وجهي وأرسلتُ يدي إلى جيب سترة والدي، وسحبت ساعته. دسستها في جيبي وغادرت الغرفة، لأجد جمعا من النسوة والأهل يبكون ويولولون بأصوات تشبه النعيق.

غادرتُ المنزل كأنني أخرج من السحاب إلى الضباب، فاعترضني عم حسونة:

ـ هل أعلمَك والدك بوضعية الحانوت؟

ـ نعم

ـ إنه لك يا بنيّ. الحانوت ملكك أنت وحدك. والدك.. أقصد عمّك..

ـ بل والدي..

ـ العفو يا بنيّ. والدك فكّر فيك. قال لي منزل والديه ما زال مغلقا كما هو بما فيه، هو منزله. أما الحانوت فهو حانوتي. لهذا أكتبه باسمه بيعا وشراء. حتى يتخذه مورد رزق.

أعرف أن أبنائي لن يتركوه في حاله، هم عندهم أعمالهم الآن، وسأترك لهم منزلا شاسعا وضيعة زيتون، تكفي أولاد أولادهم. أما ابن أخي علي، فمن واجبي أن أترك له مورد رزق.. أليس كذلك يا تيجاني؟

ـ الله يرحمو.. لو كان والدي لما فعل لي ما فعله عمي

ـ هذه مشيئة الله

مدّ لي عم حسونة مفتاح الحانوت، وشدّ على يدي قائلا:

ـ ربي يوفقك يا بنيّ، عوّل على نفسك ولا تلتفت إلى الماضي.

ـ لكن.. على حد علمي أنت صاحب الحانوت، والدي، أقصد عمي لا حانوت له. صحيح أراه يجلس معك كثيرا أمام نفس الحانوت، ويسهر في حانوتك أحيانا، ولكن لم أسمع منه يوما أنه يملك ذلك الحانوت أو أيّ محلّ آخر. ثم ماذا ستفعل الآن؟ أنت قضيّت فيه عمرك.

ـ لا يا بنيّ. الحانوت على ملك عمّك. أنا كنت أعمل عنده بالأجرة، وأوصاني أن لا أعلم أحدا بالموضوع. قال لي أن الحانوت هو لك. عمك باع البعض من شجيرات الزيتون واشترى ذلك الحانوت من أجلك يا بنيّ. أنت يتيم لا أب ولا أم، لهذا فكّر فيك عمّك. أنت في الأخير ابن أخيه، وهو أيضا من ربّاك، كأحد أبنائه.

أما أنا يا ابني، فسأغادر هذه المدينة إلى مدينة صفاقس، حيث يعمل ابني لاستقرّ معه هناك. أنت تعلم أن وفاة زوجتي السنة الفارطة، جعلت الحياة عندي بلا معنى. عليّ أن أكون بجانب ابني الوحيد، أهتمّ به ويهتمّ بي.

ارتمي عمّ حسونة العطار ليحضنني بحرارة، ثم سحب جسده بسرعة وانطلق مسرعا، حتى لا يزيد في تأجيج مشاعر الحرمان التي يبدو أننا نتقاسمها معا.

يا والدي العظيم.. هل أقول يا والدي، أم أقول يا عمّي؟ ولكن أين أبي الحقيقي؟ أنا لا أعرف إلاك. لم أفتح عيوني إلا في قامتك الفارهة، وابتسامتك العريضة، وقلبك الرحيم. لم تخطر ببالي لحظة مثل هذه النهاية القاسية. لم يخطر ببالي ولو حلما، أن أجدني في مثل هذه الوضعيّة.

".. وضعية أمّك كانت تجلب الشفقة. لم يكن والدك صاحب مسؤولية، ولم يستطع أن يكون لا أبا ولا زوجا. ظلت أمك تعاني من سلوك والدك ومجونه وخمره، حتّى كان ذلك اليوم الذي فقد فيه وعيه على آخره، وظل يطاردها بحزام بنطاله، حتى تعثّرت وسقطت في بئر جارنا المهمل"
هكذا حكى لي عمّي تلك الحادثة بألم من تمسك به سكرات الموت.

عمّي هوّ أبي، وأبي الحقيقي لا وجود له. بل أنه لم يمت مرضا أو استشهد، أو قضى نحبه في عمل شاق. مات ميتة الكلاب كحيوان نافق في داموس. مات بعد أن قتل زوجته التي هيّ أمّي، وأكمل عمره في السجن، إلى أن ذبحوه كفرخة.

أيّ أب هذا الذي يقتل زوجته من أجل الخمرة، ويشرّد ابنه؟ أيّ حيوان هذا يفعل فعلته؟

(5)

منذ أن رجعنا من المقبرة، وقد وارياه التراب، انقطعت أي صلة بيني وبين عائلة عمي، خاصة بعد أن أصرّ لطفي على أن أذهب في حال سبيلي، وقال على مرأى ومسمع من الجيران أنني لقيط وفاسد ولا أشرّف العائلة.

بَقيتْ علاقتي محدودة بزوجة عمّي التي أحاول من حين إلى آخر أن أزورها في غياب أبنائها الذين كنت أعتقد أنهم إخوتي. خاصة لطفي الذي يكنّ لي حقدا كبيرا لم أفهم إلى اللحظة دواعيه وأسبابه. زوجة عمي، أو أمي ظلّت تحترمني حتى بعد موت عمّي. ولكنها مغلوبة على أمرها. حيث منعها لطفي من مقابلتي أو الإتصال بي. مع ذلك كانت تحاول من حين إلى آخر، أن تزورني في حانوتي البارد لتطمئنّ على أحوالي، جالبة معها بعض البيض أو شيئا من "عولتها" التي كانت تخزّنها لأيّ طارئ.

أصبح الحانوت كل حياتي، وعدت إلى منزل والديّ أنظفه وأعيد ترتيبه في فترة لم أتجاوز فيها العشرين من العمر. ومن المهم أن أقول لكم أن منزلنا عُدت إليه بعد شهر أو أكثر بقليل من وفاة عمّي. ظللت في الحانوت أسهر وأنام وأحلم أحلاما مزعجة وكوابيس. وأذهب إلى مقهى العجمي لأتغوّط أو أقضي حاجاتي البشرية الملحة.

اقتربت في تلك الأيام من مرحلة الحيوانية، لهذا فكّرت أن أعود إلى بيتنا الأوّل بحثا عن جذور قطعتها، أو بالأحرى بحثا عن تربة اقتُلعتُ منها عنوة.

لم أجد في منزلنا القديم أي شيء له قيمة. أرضية الغرفة الوحيدة يعلوها التراب والسواد. أسراب من النمل تحفر هنا وهناك. خيوط العنكبوت تتدلى من كل ركن. سرير خشبي نخره السوس، حتى عرجت إحدى سيقانه.

أحسستُ باختناق بفعل الرطوبة والرطانة العابقة من الغرفة. حتى الشبّاك الوحيد المقابل جهة الشرق، لم أستطع فتحه بفعل الصديد الذي غلّف صفائحه.

اتجهتُ صوب الإطار الوحيد المعلّق على الحائط الرمادي المتّسخ. سحبته من المسمار، فصبّ عليّ الحائط كمشة من غبار رمّد وجهي. مسحتُ وجهي بإهمال، ومرّرت يدي على بلوّر الإطار لأزيل الغبار العالق فوقه.

رجل أربعينيّ وامرأة شابة يقفان بجانب بعضهما. الرجل قصير وممتلئ، وله شارب أشبه بشعر عانة سيدة سوداء.

أما المرأة فهي نحيلة.. فهمت أنها خجولة، هي تقف بلباس تقليدي بكل حياء، مطأطئة الرأس، تنظر إلى الأسفل بخجل. وصف لا يمكن أن يعني شيئا. هي ملاحظات حينية لا تحمل أي خلفية، ولا أي مشاعر ولا أي أحكام. مجرّد صورة كانت معلّقة، يغطيها غبار الزمن القديم.

هل هما أصلي؟ هل هذا النذل أبي؟ هل هذه المسكينة أمي؟ ربما..

خمّنتُ أنه والدي السّكّير الذي ألقى بأمي في بئر عميقة، ومات مقتولا في أحد السجون، كأحد أفراد عصابات المخدرات.

شعرتُ بدوران وغثيان. كأنّ شرايين رأسي امتلأت دما، وظلت تتورّم وتتورّم حتّى انفجرت وغطّت الدماء مساحة الجمجمة. ثم خرج الدم حارا من كلّ ثقوبها، من العينين والأذنين وجيوب الأنف والفم، وحتى مسام الجلد.

ظللتُ أدور على نفسي، وظلت جدران الغرفة تدور حولي. أدور، وهي تدور.. أدور، وهي تدور. وانبثق من شقوق الأرضية زفير ريح صفراء، ظل صوتها يعلو ويقوى ويدور. ظلت الريح تدور وتدور حتى صار الدوران سيّد الأشياء.

جسدي يدور حول نفسه، وتدور حوله الجدران والنمل والغبار والسرير الأعرج. حتى أكمل الدوران دورته الأخيرة، وعادت الأشياء إلى أصلها. إلى الجاذبية الأولى. إلى جاذبية نيوتن.

لم أعد أتذكر المدة التي بقيتُ فيها ملقى على أرضية الغرفة، دون فراش أو غطاء أحتضن إطارا قديما. ربما بقيت على تلك الحالة ليلة أو أكثر بقليل.

وقفت دون أن أنفض ملابسي. تمعّنتُ في الإطار.. في صورة الأب النذل القاتل، والأم المغدورة التي لا حول لها ولا قوة. ألقيتُ الإطار بكل ما أوتيت من حقد وقوة على الجدار المقابل، فتناثر الزجاج شظايا، كما تناثر الدم الحار في فجوات الجمجمة، فهرعَتْ بعض الحشرات الدابة على أرضية الغرفة، إلى جحورها. حملتُ الصورة، ومزقتها نصفين، وضعت صورة أمي في جيبي، ومزّقت صورة الوالد النذل إلى إرب، تساقطت تحت أقدامي، فدستها بنقمة المحروم.

الكلب.. قيل لي أنه كثيرا ما يصطحب نساء إلى المنزل، ويُجبر أمّي المسكينة على أن تخدم ضيفته المومس، دون حياء أو خجل. تطبخ لهما وتقدم لهما "الكمْية"، فيسكران، ثم يمتطيها كبغل، بعد أن يأمر أمي أن تنام في المطبخ، أو تغادر إلى منزل عمي.

وكثيرا ما يحدث الهرج والمرج والسباب بين والدي وزانيته، بسبب قد يكون تافها ، فيسحب حزام بنطاله، ويدق به جلدها، فتظل تصرخ وتسب:

ـ يا طحان.. والله لا تجي راجل.

ـ أخرج عليّ يا قحبة.. يلعن بو والديك.

تظل أمي تسترق السّمع والنظر من ثقب باب المطبخ الأشبه بإسطبل، حتى ترى المومس تخرج شبه عارية، تحمل أدباشها حافية، وهي تركض. تبتسم أمي بحرقة، غير أنّ والدي يصرّ دائما على أن يُعيد الكرّة بعد أسبوع أو شهر. هكذا كانت تحكي أمي إلى عمي وزوجته. تشكو له سلوك شقيقه، فيكتفي عمي بأن يدعو له بالهداية وصلاح الحال "ربي يهديه، ويصلح حاله.. أطلب له بالهداية يا سعيدة.. عل الله يهديه، وينجّيه من هذا الجنون".

ظلت أمي تعاني عربدة والدي النذل وسُكره وزناه، ولم تستطع أن تهديه، كما تنبأ عمي، بل زاد والدي في هيجانه وإدمانه الخمر والتكروري، حتى نبذه أغلب الناس.

والدي كما حكى لي عمّي، شَغلتْه الخمرة والنساء عن العمل والإهتمام بزوجته. يبذِّر ماله في الملذات، وينفقه على المومسات. وكلما نفذت الملاليم التي بحوزته، يبيع قطعة أرض مما تركه له والده. يدس تلك الملاليم في جيب ميدعته الداخلي، ويظل يقتّرها بالمليم حتى تنتهي، تم يبيع قطعة الأرض الموالية. ظل على تلك الحال حتى باع كلّ ما يملك من الأرض التي ورثها عن والده. ولم يُنفق منها مليما واحدا على أمّي التي سلبها مصوغها ورماها كشاة نافقة. الغريب أن تلك الأرض التي كان يبيع منها كلما احتاج إلى المال، هي نفس تلك الأرض التي تركها والده بعد مماته، وأنكرها على أخيه، فلم يعطه منها مليما واحدا، رغم وساطة الكبار والصغار.

منذ اللحظة التي باع فيها آخر ما يملك، جفّت دماؤه في عروقه، وتكلّس ما بقي من إنسانيّ في داخله.. فانتفض كالمذبوح يأكل الأخضر واليابس.

فكثر ضربه لأمي وإهانتها وإذلالها، كأنها حمير أو أمَةٌ. ظل على تلك الحالة حتى كان اليوم الذي دفعها في بئر عميق أو دفعها خوفها، فماتت سعيدة شرّ ميتة. ماتت سعيدة دون أن ترى ولو لحظة سعادة في حياتها. فيما أكمل والدي أيّامه في السجن، حتى مات فيه مقتولا.

بعض هذا الكلام صرّح به عمّي وهو على فراش الموت، وبعضه وزّعته الأفواه من هنا وهناك، ليلتقطه سمعي خلسة أو مواربة أو مباشرة من بعض من يريد أن يُسْدي لي خدمة، من خلال مدّي بمعلومات عن عائلتي التي لا أعرفها، ولم أنتَمِ إليها.

(6)

شاع مقتل عبد الله الحَرَس وتدافعت الأفكار والتُّهم والتخمينات في المقاهي والحوانيت والبيوت.

الرجل علاقاته سيئة مع أبناء زوجته كمال وليلى. والكل يعرف أن كمال ظل مرابطا على شواطئ مدينة سلقطة حتى صادف "حرقة" إلى التراب الإيطالي، فاختفى دون أن يُعلم أحدا بفكرته، ولا وجهته. فيما انتقلت ليلى إلى العاصمة بعد نجاحها في مناظرة البكالوريا، وتشردت هناك بين المبيتات الجامعية والغرف المظلمة، والشقق المعدّة لبيع اللحم البشريّ. وقد نقل طلاب المدينة الذين يزاولون تعليمهم في العاصمة أخبار ليلي وقصصها الكثيرة.

ويشاع أن حبيبة هي من سهّلت لها طريق الانحراف لمّا عرّفتها بأول شاب عائد من إيطاليا أوْهَمَها أنه سيتزوجها ويحملها معه إلى بلاد "الطليان" وينقذها من الفقر والخصاصة. غير أنه استغل لحمها الغض وأغدق عليها من المال حتى انقادت له، ورضخت لنزواته. كان مفعول الهدايا من عطور وملابس واكسسوارات، أكبر من أن تقف ليلى في وجه النزوة، فانساقت دون حسيب أو رقيب.

غير أن الجسد الفاني، وككل جسد إذا بلي وتقادم، قد يُترك للريح وللعراء. وهذا ما فعله ذلك الشاب، حيث غيّر ليلى بأخرى أكثر نضارة وجمالا.

غير أن ليلى عادت إلى أستاذها في الثانوي، أستاذ الفلسفة الذي كانت تحاول أن تتقرب منه وهي في صفوف الثانوية، لكنها فشلت. الآن عادت أكثر إصرارا لتكسبه من جديد. هذه العلاقة أكثر إثارة من غيرها، لأن الاقتراب من حمدي أستاذ الفلسفة، هو اقتراب من النار. فالرجل يرميه أغلب سكان المدينة بالكفر. فهو لا يتوانى عن التدخين في شهر رمضان، ومشاكله كثيرة مع إدارة المعهد. فهو لا يقف عند سماع النشيد الوطني بالمعهد صباح كل يوم "هذا نشيد بن علي، وليس نشيد تونس".. هذا ما كان يقوله علنا وأمام الجميع، غير أنه ينشده بحماسة وخشوع حد البكاء في مقرات اتحاد الشغل.

وهذا الرجل متهم أيضا بقتل عبد الله الحرس. فهذا الأخير كثيرا ما كان يهدده، ويتابع خطواته.

وبدأت حملة شرسة قادتها فرقة مقاومة الإجرام والبوليس السياسي لفك لغز مقتل عبد الله الحرس. فهو في الأول والأخير أحد أعوان النظام، وقتله بتلك الشناعة، يعدّ اعتداء على أمن الدولة وهيبتها. وتم تحويل الأمر من مجرد جريمة قتل إلى جريمة سياسية، قد تحرق كل من يشتبه به اشتباها لا غير. وما زاد الطين بلة أن البلاد في حالة غليان، وكل انفلات إضافيّ، من شأنه أن يدعّم موقف الفوضويين، ويساهم في مزيد الانفلات. الأمن في حالة استنفار قصوى، بسبب أحداث الفوضى التي تعيشها البلاد، بعد أن أحرق صاحب العربة جسده على مرأى

ومسمع من الجميع. لهذا فمثل هذه الأحداث الجانبية قد تلهيهم عن القيام بدورهم في إخماد النيران المشتعلة في مدن تالة والقصرين وسيدي بوزيد.

قامت قوات الأمن باستدعاء كل من له علاقة من قريب أو من بعيد بعائلة عبد الله، بمن في ذلك الجيران والأُقارب، ومن يتردد على العائلة.

الوحيد الذي لم يقع استدعاؤه، هو كمال باعتباره مقيما خارج حدود البلاد. وربّما وجوده خارج البلاد، كان في صالحه، لأنه أكثر الناس خلافا مع عبد الله الحرس زوج أمّه. ولولا احترام عبد الله واحترامه لزوجته، لألقى به في السجن منذ أول خلاف كان بينهما في المقهى على مرأى ومسمع من كل روادها.

كان كمال مخمورا وفي حالة غليان، خاصة بعد أن عاقبه الحظ، ولم يستطع فكّ شيفرة ورقة "برومسبور". فريق وحيد حال دون الظفر بخمسين ألف دينار. مبلغ كان يمكن أن يقلب حياته رأسا على عقب. فريق واحد وقف حجر عثرة أمام أحلامه الريفية البسيطة. كانت كلمة وحيدة من نادل المقهى كافية لأن تُفقد كمال صوابه، فانفلت كجمل هائج يعبث بكل محتويات المقهى من كراسي وطاولات وكؤوس. ولم يسلم منه حتى الروّاد الذين غادروا في صمت أو في خوف. انطلق ابن صاحب المقهى مسرعا ليُعلم عبد الله الحرس بالواقعة. ولكن وصول عبد الله زاد في تأجيج الموقف، كمن صبّ البنزين على النار. استقبله كمال بالسبّ والشتم. بل وصل به الأمر إلى أن وصفه بالزاني واللقيط وصفات أخرى من شأنها أن تلقي به في غياهب السجون دون رجعة:

ـ بول عليك وعلى الداخلية.. هذه بلاد طحّانة.. والله إلا ما نخرج منها. هذه بلاد السراق والكفّار والزناة.. تفوه عليك يا كلب.

ظل عبد الله ينظر إليه شزرا، وربما حكّم عقله قبل مشاعره التي جُرحت، وانسحب دون أن يبدي أي تصرّف.. التفتَ إلى صاحب المقهى:

ـ عليك بالقضاء.. أنا لا علاقة لي بالموضوع.

ما جعل عبد الله ينسحب، ليس السبّ والشتم والفوضى التي أشاعها كمال في أرجاء المقهى. وليس أيضا خوفه من كمال، الذي لا يمكنه أن ينازل عبد الله الحرس بتلك البنية الضعيفة. ولكن الكلام الذي قاله كمال في حقّ الداخليّة، هو الذي جعل عبد الله ينسحب، مخافة أن يُحسب عليه ذلك الكلام، فيُتّهم بالمشاركة فيه، أو التستّر على مجرم.

المهم أنّ كمال بعد كل هذا، أمكن له أن ينفذ بجلده من الاستنطاقات والأبحاث التي يمكن أن تطاله حول مقتل عبد الله الحرس.

بعد أخْذ وردّ واستنطاق كل الشهود والمتهمين، تم توجيه التهمة رسميا إلى عائشة زوجة عبد الله، باعتبارها آخر من رأى القتيل، ومن بلّغ عنه، ومن عاين جثته قبل أن تجفّ الدماء في العروق، قبل وصول الأجوار ورجال الأمن .

وفي مركز الشرطة، جيء بعائشة من الإيقاف، وجلست قبالة محقق شاب، فيما جلس آخر أمام الآلة الكاتبة، يُعدّ أصابعه للانقضاض على الحروف النحاسية، لتحدث نقرات حادة لا تشبه أي صوت آخر. تلك النقرات التي تردد صداها بين جدران جمجمتها الصغيرة، وهي تستحضر صوت تلك العجوز الشمطاء "سترين السعادة كالضباب.. تطل حينا ثم يبتلعها الغياب". أي حياة هذه؟ أي مصير؟ أي سعادة هذه التي سيبتلعها الغياب؟ لم أر السعادة أصلا، إلا بضع سنوات، وتكاد لا تعتبر سعادة، إلا إذا اعتبرنا أن بقاءنا أحياء، هو السعادة المنتظرة. ظلت توزّع تلك الكلمات والأفكار في مخيلتها، كما توزّع خرافها في أركان الزريبة، حتى تفسح المجال للخراف الصغيرة كي تأخذ نصيبها من العلف.

أشعل المحقق سيجارته، ووجه كلامه إلى عائشة:

ـ اسمك بالكامل

ـ عائشة...

ـ الاسم الثلاثي

ـ عائشة بنت حمد بن إبراهيم

ـ متزوجة؟

ـ متزوجة من عبد الله

ـ كم عدد أولادك؟

ـ كمال وليلى..

ـ لا غير؟

ـ كمال وليلى سيدي.. الشيء الوحيد الذي خرجتُ به من هذه الدنيا

ـ عبد الله هو الراجل الثاني، صحيح؟

ـ الأول سافر إلى ليبيا عام 1983، ولم يعد إلى الآن

ـ يعني مات؟

ـ لا أدري.. في 1985 عندما أطرد القذافي العمال التونسيين، زوجي لم يعد معهم إلى الآن

ـ يعني مات؟

ـ قلت لك لا أعرف..

ـ هل تتزوجين برجل آخر، وأنت ما زلت في عصمة الزوج الأول؟

ـ لم أفهم سيدي

ـ كيف تتزوجين من عبد الله، وزوجك ما زال حيا؟

ـ لا.. لا.. أنا رفعت قضية في الطلاق

ـ ولماذا لم تنتظريه؟

ـ هل سأبقى عمري كله أنتظره.. من سنة 1985 وحتى 2005 وأنا أنتظره.. ألا يكفي قرابة ربع قرن من الانتظار؟

ـ هل حكمت لك المحكمة بالطلاق؟

ـ لا أعرف.. لا أعرف.. رفعت قضية في الطلاق، وانتهى.

ابتسم المحقق بسخرية، وقطب حاجبيه، كمن يريد أن يوصل إلى عائشة شعوره بالاستغراب. فيما أكمل العون الآخر توزيع أصابعه بتوتّر على مفاتيح الآلة الكاتبة. أكمل المحقق:

ـ عبد الله تزوجته عن حب؟

ـ لا حب ولا هم يحزنون. السيد رغب في الزواج مني، وأنا قبلت. نعم هو من الشمال الغربي، ولكنه راجل ولد راجل، وزد على ذلك أنني بقيت وحيدة، ولم أستطع أن أقاوم الحياة ومشاكلها. بل كثر الذين يدورون حولي طمعا في جسد امرأة لا أحد يحميها.

ـ هل عبد الله كان يشكو من مرض ما؟ هل ثمة ما يقلقه؟

ـ كان مريضا بالكلى، لا غير.. الكلى تقلقه كثيرا، وقد يصل به الأمر إلى حد التقيء، وقد يفقد وعيه بسبب الأوجاع.. سي عبد الله يضطر إلى أن يفطر رمضان.. نعم الطبيب نصحه بعدم الصوم.. هذا كل ما عنده.. لا يقلقه شيء عدا الكلى.

ـ دعنا من هذا.. لماذا قتلتِ عبد الله؟

ـ أنا.. أنا أقتل عبد الله؟ أنا أقتل عبد الله؟.. أقسم بالله العظيم..

ـ وجدنا بصماتك على السكين

ـ يستحيل.. يستحيل أقتل عبد الله.. لم يبق لي سند بعده.. فقدت زوجي الأول وأضعت أبنائي وفقدت زوجي الثاني.. كمال "حرق" إلى إيطاليا، وبنتي ليلى.. (تنهدت) الله يهدي

رفع المحقق كيسا بلاستيكيا إلى أعلى.. "السكين هذا تعرفينه"؟

ـ يا سيدي والله العظيم لست أنا القاتلة. هل من الصعب على أي كان أن يسرق سكينا من بيتي، ليقتل زوجي؟ هل هذا مستحيل؟

وانخرطت في جوقة من البكاء الحارق..

ـ هذا تخريف..

سحب سيجارة أخرى.. أشعلها من الأولى، وأرخى جسده على الكرسي.. رفع رأسه إلى سقف المكتب المغبرّ، ومدّد أرجله إلى الأمام، وأكمل:

ـ هل لك ما تضيفين؟

ـ والله سيدي لا علاقة لي بالقتل.. أنا أقتل؟ هل يمكن لإمرأة أن تقتل زوجها، بعد أن فقدت زوجها الأول وأبناءها؟ أنا امرأة بسيطة من عائلة بسيطة. لم تعلمني أمي غير الطاعة والعمل بصمت. لا أتأفف ولا أشكو. أظل أعمل بصمت دون أن أتذمّر.عمري كله كنت أتمنى أن أعيش عيشة بسيطة مع زوج يحبني ويحترمني. أعيش في بيت بسيط متواضع، أسعى جاهدة أن أرتبه وأجعله دافئا لزوجي ولأبنائي. (أطرقت قليلا، وهي تهش برأسها تلك الأفكار التي تأتيها من تلك العجوز الشمطاء) للأسف لم أوفّق في أن يبقى زوجي الأول حيّا، ولم أوفّق في أحافظ على أبنائي.. هذا ليس خطئي، وليس خطأ التربية التي علّمتني أن "العائلة هيّ الأصل" كما تقول أمي رحمها الله.

ظل عون الأمن مسترخي في نفس مكانه، ينفث سموم سيجارته، دون أن يعير أي اهتمام لما أضافته عائشة، لقناعته أن مثل هذا الكلام لن يغيّر شيئا من مجرى التحقيق. وجه بصره وكلامه إلى العون الجالس وراء الآلة الكاتبة:

ـ أعطها تُمضي على أقوالها، ستحاكم في حالة تقديم..

دفع الكرسيّ إلى الخلف، ونهض يسوّي سرواله، ويعيد ترتيب حزامه الجلديّ. رفع هاتفه الجوال وعلبة السجائر من فوق المكتب وغادر. فيما انخرطت عائشة في هستيريا من البكاء والعويل.

(7)

بقيتُ لسنوات عديدة أعيش في راحة بال واستقرار نفسيّ أنشد وحدتي.. صحيح أنني فقدتُ عمّي الذي ربّاني والذي كنتُ أعتقد لسنوات أنه والدي. صحيح أنني ـ أيضا ـ أُجبِرتُ على أن أبتعد عن زوجة عمي، التي لم تبخل عليّ بعطفها وتعاطفها مع وضعيتي، بعد فقدان الأمل في أن أواصل تمثيل دور الابن، وتواصل هي تمثيل دور الأم.

الأم التي لم أرها قط، إلا في تلك الصورة التي ظلت معلقة في الغياب.. جئتُ وهشمتُها، بعد سنوات عديدة من تعليقها على سطح ذلك الجدار البارد.

ما زالت صورتها التي اقتطعتُها من ذلك الإطار أحملها أينما ذهبتُ. الغريب أنني كلما أردتُ تذكرها تصيبني غشاوة ودوران حدّ الغثيان. أتمدد على ظهري كسلحفاة ممتلئة، أدق نظري في سقف الغرفة. هل فعلا هي أمي تلك الواقفة إلى جانب ذلك النذل، والمنتصبة بفستان أبيض أقرب إلى اللون الرماديّ، من قال أن تلك الصورة هي صورتها. ربما إحدى مومسات ذلك النذل والدي، أو ربما امرأة أخرى، لا علاقة لها بي أصلا.

أعتقد أن ذلك النذل لو اتضح أنه ليس والدي، سأذبح الخرفان لأهل المدينة. لا يهم الآن، لقد اكتملت الصورة. وليكن أنها أمي، وذلك المنتصب بجانبها كدنّ خشبيّ من الخمر، هو والدي الذي كرهته دون أن أراه. سأنهي الأسئلة والحيرة والقلق، وسأقتنع تماما بأن تلك الصورة.. عفوا، ذلك الجزء من الصورة الذي أدسّه دائما في جيبي، هو صورة والدتي. سأنهي الأسئلة، بعد أن رأت زوجة عمي الصورة، وأكّدت لي أنّها لأمّي. ولكن لم أرِها صورة والدي، لأني مزقتُ صورته. ولكن الأكيد هو نفسه. هو من مزّقتُ صورته ودُستُ وجهه بحذائي، هل قلتُ وجهه؟ لا دستُ أجزاء الصورة بحذائي، دست ماضيه ورجولته وتاريخه وخمره ومومساته ونذالته. دست اسمه ومَحَوت العلاقة التي تربطني به.

فطالما أنه كان يقف بجانب أمي، يعني أنه هو.. هو والدي، ذلك النذل الذي قتل أمي وأكمل عمره في السجن حتى قُتل فيه.

ما زالت صورتها التي اقتطعتها من ذلك الإطار أحملها أينما ذهبتُ. الغريب أنني كلما أردتُ تذكرها أسحب تلك الصورة الناقصة، وأتمعّن فيها جيدا. أتمعن في سذاجة أمي وطيبتها، فأنا إلى الآن لم أستطع أن أثبّت صورة أمي في مخيّلتي، ولم أستطع أن أحفرها في داخلي العميق المظلم. ولكن الذي يحضر دائما، هو ذلك النذل والدي بشاربه الأشبه بعانة سوداء. ممتلئ وقصير كآنية من فخار أعدّت لتخزين الزيت. أنا قلت الزيت، ولكنني أعتقد أن الأصحّ هو

تشبيهه بآنية لتخزين الخمر. لأن دنّ الخمر كثيرا ما تنبعث منه روائح كريحة معتّقة بفعل تراكمها في الزمن.

تلك الشروخ لم تَمنَعني من أن أواصل حياتي بين الناس دون أن أظهر لهم أنني يتيم أو مكسور ككأس. قيل لي أن اليتيم ليس من فقد والديه، بل ربما من كان يعيش بينهما وهو لا يشعر بوجودهما. وأن المحروم ليس من حُرم من المال والمتاع، بل ثمة من يكنز المال دون حساب، وهو محروم من خيرات ذلك المال. ولكنني في الحقيقة لا يقنعني هذا الكلام الذي كثيرا ما يعيده عليّ الشيخ الهادي كلما ألمّ بي الضجر، وانطويت على نفسي ألملم شذرات تلك الصورة التي أدسّها في جيبي منذ سنوات.

الحرمان الذي عشته عوّضته بلحظات جنسية مع كل من رغب في لحمي الطريّ. لم يعد لطفي ابن عمي ينكحني، ولكنني عوضته بآخرين متزوجين وعزابا. اشتهي أحدهم، فأدعوه إلى الحانوت. وهناك يبدأ احتفال الجسد بالجسد. أبرك على ركبتيّ وأشرع في مصّ القضيب ولحسه، حتى أجعله جاهزا ومنتصبا، ثم أنحني ليدكه في مؤخرتي، كانت رغبة الحرمان تدفعني إلى أن أنهل من قوة الرجال، ما لم أستطع أن أكسبه في حياتي من قوة ورجولة. رجولة لم يستطع عمّي أن يمنحنيها، ولا كان لي أب لأرث عنه رجولته.

لم أعد أشعر بذلك الألم الذي شعرت به أول مرة وثاني مرة.. صارت اللذة تعوّض الألم.. تحضر بدرجات متفاوتة. ثم العادة تعوّض اللذة. ثم اللذّة صارت حاجة لا غنى عنها. إنها هشاشتي وضعفي وانكساري.

ومع تقدمي في السن صرت أحتاط أكثر من العادة، وبدأت أختار الضحايا توقيا من كلام الناس. صرت انتقي الشبان الأكثر مقدرة ووسامة ـ على قلتهم ـ أصحاب البنية الجسدية القوية. لا بد أن أشعر بتلك الهزة، ذلك العنف الأشبه بتيار كهربائي، والذي لا يمكن أن يتحقق لي مع أي شخص. بل عادة ما أختار من أعتقد أنهم في حاجة إلى المال. في حاجة إلى علبة سجائر، أو ثمن مصروف اليوم، أو حتى ما يحتاج ليسهر، وليس له ثمن علب البيرة.

ظل الحانوت لسنوات مورد رزقي ومستقري النفسي والعاطفي. لست خجولا ممن ينهشون جسدي، بل صارت اللحظة عادة، والعادة هي الأكسيجين الذي أتنفس. الأكسيجين الذي لا أحمله في داخلي، ولا تتوفّر عليه حياتي. حياة لا يدخلها الأكسيجين لأتنفّس وأعيش. كانت حياة مختنقة ومضطربة، كحالتي النفسية الأشبه بدنّ مثقوب يرشح من كلّ جوانبه، ولا أحد بإمكانه أن يسدّ تلك الثقوب العديدة.

كلما كبرت زاد حذري، مع اقترابي من المسجد ورواده، فأنا إمام المسجد ومرشد المصلين، وأنا الذي أجمع الأطفال كل يوم أحد في جامع سيدي علي المحجوب، لتحفيظ القرآن، مقابل مبلغ زهيد. لا يهم المبلغ فللكتّاب فضل علي وعلى أغلب سكان الجهة، تخرج من الكتاب عديد

الرجال صاروا قدوة المجتمع ومرآته. نعم للكتّاب فضل عليّ. آه.. كلما أستحضر تلك اللحظات المرعبة، تعاودني تلك الأوجاع والآلام. يعاودني القيء والدوران، وينفتح زوم الذاكرة على ذلك الخميس الأسود القائظ. على تلك الأشجار الوارفة. الغابة التي فيها دسّ ذلك الحيوان قضيبه في مؤخرتي. ذلك الحيوان الذي ما زالت صورته محفورة في قلبي كالوشم الذي لا يُمحى. شاب لم يتجاوز العقدين من عمره. ممتلئ وله أسنان بارزة، وبالكاد نبتت له بعض الشعرات في وجهه. له أنف أفطس كأرنبة الهرّ. نعم صورته ما زالت محفورة في قلبي كوشم لا يُمحى أبدا ولو أحرقوا الجسد. علمتُ أنّ أحدهما مات في السجن بوباء السرطان، بعد أن حُكم بالمؤبّد إثر جريمة قتل طفل وإلقائه للكلاب السائبة، بعد الإعتداء عليه جنسيا، في نفس تلك الغابة المحاذية لتلك المقبرة الموحشة.

أما الثاني فغادر البلاد إلى أوروبا خلسة، ومنذ ذلك التاريخ لم أسمع عنه أو أره. آه.. من تلك السنوات، ومن ذلك الجرح الغائر النازف الذي لم يندمل. في الوقت الذي حفر الزمن في داخلي صورة ذلك المجرم، لم يفلح ذلك الزمن نفسه في أن يحفر في تجاويفي صورة الأمّ المغدورة، مما يضطرّني إلى أن أسحب من جيبي ما تبقى من تلك الصورة لأتحسس ملامحها بأصابعي وعيوني ولساني وكلّ حواسي. حتّى أنني فكرت أكثر من مرّة في أن أمضغ الصورة وأبتلعها حتى يتحوّل حمضها الأبيض والأسود إلى طلاء يصبغ تجاويف الذاكرة المثقوبة. غير أنني أتراجع عن فعلتي تلك مخافة أن أخسر الصورة، ولا يتحقق حلمي.

أحيانا أنفرد بجروحي، أرتّبها أمامي، وأسحب حزام بنطالي الجلديّ، وأشرع في جَلدها الواحدة تلو الأخرى.

ـ ذنوبي كثيرة يا الله.. على ماذا ستحاسبني، وأنا الذي عشتُ دون أب ودون أمّ.. على ماذا ستحاسب مخلوقا عاش يتيما ومحروما؟

هل اللواط خطيئة؟ ولنفرض.. ها أنك جعلتها وباء بشريا.. أنت يا ربّي صنعت شعوبا كاملة لواطيّة، وعاقبتها، وهدمت ديارها.. إذن ما ذنبي؟

ألا يحق لي أن أعوّض حرمان الوالدين بلذّة فانية؟

يا ربّ.. حاولتُ كثيرا أن أتوب وأن أقلع عن هذا الأفيون، ولكن دون جدوى.. صحيح أن العادة بدأت تقلّ شيئا فشيئا بفعل تقدّمي في السنّ، ولكن لم أشف تماما.

ألا تغفر لي إمامتي للناس؟ ألا يغفر لي القرآن الذي أعلّمُه للأطفال إناثا وذكورا؟ ألا يغفر لي يُتمي ما اقترفت؟

أنت غفور رحيم بعبادك، فاغفر لي ذنوبي؟ أنت أعلم بما في الصدور، وبما في العقول.

بدأت أتقدّم في السنّ، وبدأ شغفي يخفت ويتراجع، إلا من حبيبة. ربما بفعل العمر المتقدم وترهل الجسد، بدأتِ اللذة تفقد معناها، إلا من حبيبة. لم يتراجع ولهي بها، بل فهمتْ مقاصدي وزادتْ طاعتها.

عندما أدخلتُ بعض التعديلات على الحانوت، وغيرتُ الخزائن و"الكنتوار"، وقلعتُ ذلك الباب الخشبي، لأغيّره بباب من الأليمنيوم، صار الحانوت أشبه بـ "سوبيرات".. تغيرت الرائحة والإضاءة والميزان الذي أبدلته بآخر إلكترونيّ. ولكنني لم أهدم تلك الدكانة الملتصقة بوجه الحانوت، كبقة في دبر بغل، بل غلفتها بمربعات من السيراميك التقليدي، حتى أغيّر من لونها الاسمنتيّ الأسود. بل وبلّطتُ بعض الأمتار من الرصيف قبالة السوبيرات، وجملّت واجهة "السوبيرات" بلوحات إشهاريّة معدنيّة، حتى صارت جزءا مهما من واجهتها.

زارتني حبيبة كعادتها ليلا، وفق موعد مسبق.. خلعتِ السفساري، ولكنها لم تجد المسمار الذي تعودت أن تعلّقه عليه.. بدتْ الرائحة مختلفة، والإضاءة مغايرة والتنظيم أكثر إثارة وجاذبية.

ـ يا شيخ الدنيا تغيّرتْ

ـ ألم أقل لك لا تقولي يا شيخ؟

ـ تحبّ أن أقل لك يا أمير المؤمنين؟

ـ إذن، هيا على بركة الله.. "أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ فَإنّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ"

ـ لا يا شيخ، يلزمك طفلة صغيرة الآن.. بنت العشرين، يكفي من حبيبة.. حبيبة كبرتْ..

ـ حبيبة.. أه منكِ ياحبيبة، لولاكِ لكنتُ في عداد المفقودين أو المعتوهين.. أنتِ من أعدتِ إليّ توازني، بعد هروب زوجتي مع ذلك النذل ابن عمّها.

ـ هرمنا يا سي علي.. لكن والله لأجدنّ لكَ بنتا من أجمل نساء الأرض، تعيش معها أجمل لحظات عمرك.

ـ عمري.. هل ما زال لنا عمر يا حبيبة؟ أنا أردت أن أكمل ما بقي لي من أيام معكِ، وماذا بقي لك أنتِ؟ لا شيء، فلنكمل قصّتنا، لن نخسر شيئا.. والله لن نخسر شيئا.

ـ سنخسر يا شيخ.. سنخسر، بدأت رائحة علاقتنا تفوح في الأرجاء، والأفضل أن نقطع هذه العلاقة قبل أن تتحوّل إلى فضيحة.

حاول ليلتها أن يقضي مع حبيبة لحظات ممتعة كعادته، ولكن حبيبة رفضت، لأسباب لم يفهما الشيخ علي.. قالت أنها تغيّرتْ، وتغيّر الحانوت، ولكن لم تُقنعه الإجابة. قالت أنها ستبحث له

عن فتاة أجمل وأصغر. أكثر قدرة على إمتاعه، ولكن الإجابة أيضا لم تقنعه، كأنها تبحث عن سبب للهروب.

الكل يهرب هذه الأيام، والبلد يعيش حالة من الفوضى والاحتجاجات والمظاهرات، منذ أن أحرق ذلك الشاب جسده في سيدي بوزيد.

ـ الواقع ليس على ما يرام سيدي علي.. قالت

ـ وما المخيف؟

ـ البلاد في حالة فوضى، وصرتُ أخاف على نفسي من القادم، أنا فقدتُ زوجي غرقا، وابني لم يعد يهتمّ لأمري، بل لم يعد يعود إلى البيت لينام. يبقى لأيام خارجه، ولا أعرف أين يبيت ولا ماذا يفعل. أنا أعيش في حيرة وقلق.

ـ هذا عادي.. ها أنا أيضا فقدتُ زوجتي، دون أن أتمكن حتى من معاشرتها، بدعوى أنها حائض، وبقيت أنتظر كالأبله، حتى أفقت إحدى الليالي فلم أجدها. أفقت بعد يوم أو أكثر.. لا أتذكر.. لا أتذكر كم بقيتُ نائما. المهم أفقت منهكا كالسكران، ورأسي ثقيلة كأني أحمل رحى فوق جثتي. فهمت بعدها أنها دسّت لي شيئا ما لأفقد الوعي لمدة تكفي لتلتقي بابن عمها وتهرب معه. هذه زوجتي التي لم تكن زوجتي إلا على الورق. وكما تعلمين، فإني فقدتُ عمي قبل ذلك، عمّي الذي ظللت إلى آخر لحظة من حياته معتقدا أنه والدي، في الوقت الذي ما زلتُ في أمسّ الحاجة إليه. تركني في العراء ورحل دون رجعة.

بل أنا لم أر لا أمي ولا أبي.. أليست حالتي أكثر دمارا من حالتك؟

نهضتْ حبيبة من الكرسي، وهي ما زالت تمسك بلحافها، وانسحبت دون أن تبتسم أو تودّع، ودون أن تطلب مصروفا أو حاجة كعادتها.

(8)

جهّزتُ نفسي منذ الصباح، استعدادا لصلاة الجمعة.. قمتُ بغُسل كامل، وجهّزتُ الجبّة والميدعة والشاشيّة الحمراء.. سحبتُ الورقات التي سهرتُ على كتابتها البارحة، ككل ليلة خميس منذ تعييني إمام جمعة لجامع سيدي علي المحجوب. أعيد قراءة الخطبة القراءة الأخيرة، قبل تلاوتهاعلى المصلين يوم الجمعة، من فوق المنبر.

لن تكون خطبة عادية هذا اليوم. البلاد في حالة فوضى وارتباك في القرار السياسي، لهذا بذلت مجهودا إضافيا وخارقا لكتابة تلك الورقات السبع. ولأن الوضع شهد تحولا بإلقاء رئيس الدولة خطابه الثالث في أقل من نصف شهر، وخروج بعض أنصار حزبه لمساندة خطابه. فيما جاء خطابي ليوم الجمعة أكثر حذرا، مخافة الانزلاق إلى التحريض والتأليب أو إشاعة الخوف والفوضى.

حين أعدتُ قراءة الخطبة، فكّرتُ في الاعتذار عن إلقائها، والتعلل بالمرض، حتى لا تُحسب عليّ تلك الأفكار والمواقف، مع أنه لا مواقف فيها عدا بعض الآيات والأحاديث والأدعية.. وطبعا الدعاء للبلاد بالاستقرار والرفاه، في ظل قيادته الحكيمة.

وخطبة هذه الجمعة في الحقيقة لا تختلف عن خطبة الجمعة الفارطة، ولا عن أي خطبة في أي جامع من جوامع البلاد شرقها وغربها. تبدأ الخطبة بموضوع تحدده الوزارة مسبقا وينتهي بالدعاء لرئيس البلاد بالصحة والرفاه، وبين هذا وذاك بعض الأدعية والأذكار.

ما يقلقني فعلا، أن شعورا ما ينتابني بأن البلاد تسير إلى الهاوية. ولكنني لا أملك الجرأة اللازمة لأصدح بذلك الشعور، ولا أحد في تلك اللحظات العصيبة من تاريخ البلاد يمكن أن يتكهّن بما ستؤول إليه الأوضاع.

ألقيت الورقات بإهمال على السرير، وأنختُ قلقي على كرسيّ خشبيّ في انتظار الآتي.. في انتظار اللاشيء.

ساد الغرفة صمت رهيب. طغت عليه دقات قلبي المتواترة. دقات قلبي التي أخالها تدقّ وفق إيقاع حار. هل لدقات قلبي طعم أو رائحة.. أعتقد ذلك..

دقات قلبي التي لم أنصت إليها في حياتي، عدا هذا اليوم، بدت لي غريبة بعض الشيء وهي تدقّ.. تدقّ.. تدق، وتتسارع الدقات بعنف وانتظام.. تتسارع.. تسارعت الدقات وتتالت على باب

المنزل لمدّة لم أعد أذكر طولها أو توقيتها. لكنني انتبهت إلى أنّ أحدهم يطرق الباب، فكتمت أنفاسي، علّي أكتم دقات قلبي، لأفسح المجال لجهاز السمع كي يحدد الطرقات جيدا.

فعلا ثمة من يطرق الباب. دقات الباب تتواتر، حتى صارت أعنف. فانتفضتُ في اتجاه الوافد الجديد.

فتحتُ الباب، لشخصين وقورين، بلحى بيضاء وعمائم. يبدوان كأنهما نزلا من السماء الملبّدة بسحب كثيفة وغبار.

رحّبتُ بهما، فقالا بصوت واحد " السلام عليكم"، فكان لزاما أن أردّ التحية بأحسن منها " وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته".. فهمتُ أنّ خَطْبا ما قد حصل، أو أنهما يرغبان في قول شيء ما. فمن باب الواجب أن أشير لهما بالدخول إلى بيتي.. بيتي الذي لم يزره أحد منذ سنوات عديدة. بل لا أذكر أن أحدا وطأه غير حبيبة في مناسبتين، حينما شعرتُ أنّ شيئا ما يمنعني من مقابلتها في ذلك الحانوت، كوجود شبان الحيّ يسهرون على تلك الدكة الملتصقة بالجدار، أو إحدى الشاحنات التي يستعدّ صاحبها لعرض بضاعته صباحا، فيضطر إلى أن يوقفها أمام الحانوت، في انتظار السوق الأسبوعية مع طلوع الصباح. مع ذلك ظللت أسأل بيني وبين نفسي، بعد فتح الباب، من دلّهما على بيتي؟ بيتي الذي لا يزوره أحد. ظل بيتا يتحاشاه الكبار والصغار، ويمرون حذوه بحذر. هذا البيت تسكنه الأرواح الشريرة، منذ أن قتل رجل زوجته وألقى بها في البئر.. هكذا يتهامسون، ويلعنون أصحابه.

أحيانا يمر بعض الصبية من أمام المنزل، فيحدثون هرجا ومرجا، ويرجمون الباب بالحجارة ثم يهربون.. أخرج ببطء فأصادف أحد الجيران يلعن الأطفال وينعتهم بأبشع النعوت:

ـ أولاد الحرام.. هذا منزل سيدكم الشيخ..

وأحيانا أجد أحد الشامتين أو المنزعجين، يتمتم كأنه يساند ذلك التصرف الذي قام به الأطفال:

ـ ديار الفساد، تبقى هدفا للرجم، ولو بعد قرن..

هذا بعض الكلام الذي صادف أن سمعته، ولكن كلاما كثيرا آخر ربما كان أقسى أو أكثر تعاطفا معي، ولكنني لم أسمعه. مع ذلك يمكن أن أتكهن بنوع الكلام، فور رؤيتي أي شخص، فأنا أعرف المتعاطفين معي وأعرف أيضا من يكرهونني ويحتقرون أصلي وتاريخي اللقيط. حتى أنّ بعضهم تحاملوا عليّ مع مجموعة من الوشاة وأرسلوا مكتوبا إلى الوالي يحرضونه عليّ من أجل إبعادي عن إمامة جامع سيدي علي المحجوب، ولكن الوشاية لم تؤد دورها المنتظر منها.

رحبتُ بالشيخين، "أهلا وسهلا في منزلي المتواضع.. أعذراني على هذه الفوضى".

ـ لا عليك يا أخي..

قال أحدهما، فيما واصل الآخر السير مطأطئا، دون أن ينبس ببنت شفة. أدخلتهما إلى الغرفة الوحيدة بالمنزل، واتجهتُ مسرعا إلى النافذة أساعد الهواء على ولوج الغرفة العابقة برائحة الرطانة، ثمّ رتبتُ بسرعة بعض الأشياء.. إلتقطتُها وألقيتُها بإهمال على طرف السرير.

ـ أهلا.. أهلا.. تفضلا..سامحاني على هذه الفوضى..

سحبتُ ثلاثة كراسي ورتّبتُها في شكل دائرة، وجلسنا ثلاثتنا

ـ أنا الشيخ عبد الفتاح، وهذا الشيخ نور الدين

ـ مرحبا بكما.. هل من خدمة يمكن أن أقّدمها لكما؟

ـ بارك الله فيك.. قال الشيخ عبد الفتاح

الموضوع يا شيخنا، يستحقّ أن نزورك من أجله في هذه الساعة وفي هذا اليوم، ودون استئذان.

ـ لا يا شيخ، تفضل في كل وقت، بيتي مفتوح للجميع.

قال الشيخ علي جملته، والدهشة تغشى بصيرته، دون أن يتمكّن عقله من معالجة الأفكار المتواترة، أو فهم السياقات المتداخلة لهذه الزيارة.

ـ حتى لا نطيل عليك يا شيخ علي، ها أنّ الشيخ نور الدين سيفسّر لك الأمر.. تفضّل يا شيخ نور الدين..

وأشار إلى الشيخ نور الدين بيده، دون أن يشيح ببصره عن الشيخ علي.

تململ الشيخ نور الدين، وسوّى جبّته والتفتَ بحَذَر جهة اليمين، ثم جهة اليسار، كما لو أنّه يخشى ممن يسترق النظر، أو يختلس السمع إلى الجلسة من جهة ما، من ثقب في جدار.. من شق في قاعة الغرفة.. خلف الباب .. تحت السرير..ثم همس:

ـ يا شيخ علي البلاد تشهد حدثا جللا، وفوضى وموتى وانتهاكات.. لا يعلم إلا الله إلى أين ستأخذ هذه الفوضى البلاد والعباد.

ـ اللهم أسترنا واستر أمتنا من شرّ الحروب والفتن.. علّق الشيخ علي بخشوع.

ـ آمين.. آمين يا رب العالمين.. ولهذا يا شيخنا نحن جئناك من القيروان، بعد مرورنا على شيوخنا وإخوتنا في مدن عدّة، لنستأنس بآرائهم وحكمتهم.. وللتوضيح يا شيخ علي، سُمعتك طبّقت الأرجاء، ولهذا ننتظر منك نصرتنا ونصرة الإسلام.

ابتهج الشيخ علي وغطّت وجهه سحابة طمأنينة، مستسلما إلى مديح الشيخ نور الدين، وقد مرّ شريط الذاكرة بطفولته المجروحة.. طفولة مخدوشة لا أمل في رتقها أو إصلاحها، ولو بمثل ذلك المديح.

نفض الذاكرة بعنف حتى تسقط من سلالها تلك الأفكار السوداء التي تحوّلت إلى لوحات سريالية معلّقة في رواق دون إضاءة.

مسح لحيته التي تلطّخت بشعرات بيضاء أضافت إليه بعض الوقار، ودقّ بصره في جسد الشيخ نور الدين كمسمار في نعش قديم:

ـ اللهم أنصر الإسلام والمسلمين.. وضّح ليَ الأمر يا شيخ نور الدين، حتى أفهم قصدك جيدا.. نحن نبذل ما في وسعنا لأعلاء راية ديننا الإسلاميّ الحنيف، وسنن نبينا الكريم...

ـ قاطعه الشيخ نور الدين:

ـ أنت تواكب يا شيخ علي ما يحدث في البلاد، ويبدو أنّ الطاغية ما زال يواصل قمعه لشبابنا، ويضرب في كل اتجاه بأيادي طواغيته.. ولكن والحمد لله، يبدو أن ساعته قد اقتربت، وأوشك على الانهيار.

ـ أعتقد ذلك يا شيخ نور الدين، ولو أن سقوطه مستبعد جدا.. ردّ الشيخ علي.

لم يعجبه الشيخ نور الدين ملاحظة الشيخ علي، ولكنه تعمّد أن لا يُظهر انزعاجه، وواصل كلامه بنفس النبرة:

ـ ربما تبدو على حقّ، إذا ما نظرنا إلى تاريخ هذا الطاغية منذ أكثر من عقدين، وضربه كلّ صوت حر، وقمعه لإخواننا في الإسلام، لصالح الليبرالية الفجة والميوعة والانحلال الأخلاقي. ولكن يا شيخ علي كل طاغية نهايته كنهاية فرعون لعنة الله عليه.. سينزل الله به ما لا يقدر عليه.

فرصتنا الآن يا شيخ علي.. الطاغية على وشك أن يسقط من أعلى درج السلم.. علينا أن نستغلّ هذا الوضع، ونساعد شبابنا على أن يواصلوا جهادهم ضد هؤلاء الطواغيت.

تنهّد الشيخ علي، وكأنه استوعب اللحظة وهو ينفض بعض الأفكار العالقة بتلابيب الذاكرة.

سحب نفسا عميقا كأنه يستعدّ لفعل ما، وردّ:

ـ وما المطلوب يا شيخ؟

ـ المطلوب أن توجّه خطابك نحو شباب الأمة ليواصلوا جهادهم ضد الطواغيت، علّ الله ينظر إلينا بعين الرحمة، ويساعدنا على أن ننشر كلمته في هذه الأمة.

ـ ولكنني أكملت كتابة الخطبة البارحة.

قاطعه الشيخ عبد الفتاح:

ـ لا عليك.. أنت قادر على أن تعيد صياغتها، نحو نشر خطاب فاعل ومؤثر.. يا شيخ علي أنت تعلم أنّ الله سيسأل العالِم عما فعل بعلمه، ألم يقل رسول الله صل الله عليه وسلم " مَن سُئلَ عَنْ عِلم فَكتَمَه أُلجِم يوم القيامة بلجَام مِن نار"..

ـ صدق رسول الله ـ رددوا جميعا

انتاب الشيخ علي حالة من الارتباك، ولكنها حالة أخرجته من التردد الذي كان يسيطر على مواقفه، وقال للشيخين مطمئنا:

إن شاء الله سأفعل ما بوسعي.. اللهم وفقنا لما فيه خير هذه البلاد.

نهض الشيخان، وهما يسوّيان لباسهما، يستعدان للمغادرة:

ـ باسم الله.. قالا بصوت واحد

نهض الشيخ علي بدوره في اتجاه أن يصطحبهما إلى الباب الخارجي:

ـ اللهم أنصرنا على الطاغية والطواغيت.

سار بهما نحو باب المنزل وصافحهما، ثم عاد أدراجه إلى الغرفة، وأرخى جسده على نفس الكرسي، وقد نسيَ أن يكرمهما بكأس من الشاي أو حتى بشربة ماء. مدّ يده إلى تلك الورقات، وعاد يرتّلها بصوت عال، إلى أن انتهى إلى :".. أقيموا الصلاة".

ضغط على الورقات بقبضتيه بكل الحقد الذي بداخله وألقاها إلى أقصى ركن من الغرفة، فتناثرت في كل الفضاء كأوراق الخريف، ثمّ أرخى جسده كرداء من الصوف البارد، رافعا رأسه إلى الأعلى، يمسح سقف الغرفة ببصره الحائر، كأنه يمسح خريطة الوطن العربي، ويعدد الزعماء والرؤساء والملوك.. دون أن يرى شعبا من الشعوب تمكّن من أن يسقط حاكما أو زعيما.

لم يسقط حتى جدار في هذه الأمة بعد غضب شعبيّ.. ستفعل السلطة فعلها.. سيضرب القمع في كل الأرجاء يمينا وشمالا.. شرقا وغربا.. لن يسلم الكبير ولا الصغير.. لا المرأة ولا الرجل.. لا الشجر ولا الحجر.. هذا تاريخهم. فهل سيسقط هذا الطاغية على خلاف كل الطغاة؟

وهو يحملق في اللون الرمادي الذي يغطّي سقف الغرفة، تداخلت في ذهنه الخيوط والأرقام والألوان والخرائط، وامتزج الأزرق القاني بألوان تضاريس الصحراء الممتدّة من الصحراء الكبرى، إلى الربع الخالي.. صارت الألوان والأشكال دوائر، حتى غلبه الدوار، ودار السقف

على جمجمته.. دارت الأرض دورتها.. دارت أحشاؤه في داخله تُكمل فعل الدوران.. فسقط مغشيا عليه من فوق الكرسيّ وظل ملقى كبرنس من الصوف الأسود في ركن مظلم.

هو في الحقيقة لم يضف للظلمة أي معنى، عدا كونه صار جزءا من مشهد مظلم لا تظهر تقاسيمه بوضوح. جسد ملقى كبرنس أسود في بيت مظلم كالسواد، ضمن حياة لا نور فيها.

(9)

السماء ملبّدة بسحب مغبرّة أقرب للحمرة، وهواء بارد لا يُنبئ بهطول المطر.. يتحول الهواء البارد إلى ريح حارة تتلقفها الأشجار والجدران ووجوه الناس الكالحة.. حالة من الوجوم والانتظار والترقب تصيب الجميع.. والكل يبحث في الفضاء عن فكرة ما أو لحظة هاربة، يمكن أن يلتقطها ليفهم ماذا يحصل في هذه البلاد.. الحوانيت مغلقة، وأبواب البيوت وشبابيكها، إلا بعض المقاهي المتوثّبة، حيث تدفع ببعض الكراسي القليلة إلى الرصيف المقابل، في انتظار شيء ما.

بدأ الناس يتوافدون على المقاهي القريبة بحذر، يتبادلون أخبارا مختلطة ومشبوهة، لا أحد يؤكد صحتها.. فيما تداول الناس خبر هروب الطاغية مع عائلته إلى وجهة غير معلومة.

ومعلومات أخرى عن إعتقال شخصيات ووزراء، وبعض النافذين من عائلة الرئيس.. تم اعتقالهم في اللحظات الأخيرة قبل هروبهم جوا إلى جهة غير معلومة. وثمة حديث عن سيطرة الجيش على مقاليد الحكم، مما ولّد حالة من عدم الفهم وتضارب الروايات التي عادة ما كان مصدرها صفحات التواصل الاجتماعي التي ظلت طيلة الأيام الأخيرة المصدر الأهم للأحداث المتوتّرة التي شهدتها المدن التونسية في أغلب مناطق البلاد.

وبين الحين والآخر يتردّد استشهاد شاب أو شيخ أو فتاة في سيدي بوزيد أو المكناسي أو القصرين. وثمة حديث عن قنّاصين يعتلون أسطح البنايات ليقتنصوا ضحيّة جديدة، دون أن يعلم أحد هوياتهم أو مدى صحّة علاقاتهم بالأمن والجيش والمخابرات.. الأحداث تتواتر وتتداخل المعطيات، حتى صارت فوضى من الأخبار لا تعرف ما الصحيح فيها، من جملة ما يُتداول.

وصلَ حاتم ولد حبيبة إلى المقهى، يمسح الفضاء ببصره، كأنه يبحث عن شخص ما.. دخل من الباب الأمامي، وخرج من الباب الخلفي، ثم اتّجه إلى منزل الشيخ علي يحمل استغرابه معه: أين الشيخ علي؟ لم أجده في أي مكان.

قال محدثا نفسه، وهو يطوي المسافة بارتباك.

وصل إلى بيت الشيخ علي، وظل يطرق الباب طرقا قويا متتاليا:

ـ المنزل هو المكان الأخير الذي يمكن أن يكون موجودا فيه.. المسجد مغلق، ولا أحد هناك بعد صلاة العصر، والحانوت مغلق أيضا.. طرقتُ باب الحانوت دون جدوى. هل أجده هنا في بيته هذا ؟

قال محدثا نفسه المرتبكة وهو يطرق الباب بعنف.. ظل يطرق الباب الخشبيّ الأشبه بباب إسطبل، كأنه واثق من وجود الشيخ علي في البيت. فالشيخ علي لم يحضر ليؤم المصلين في صلاة الجمعة، ولم يظهر منذ الصباح في أي مكان ولا في الحانوت.

ظل يطرق الباب، حتى سمع حفيفا من الداخل يشبه خطوات إنسان يمشي على القشّ.. ظلّت الخطوات تقترب شيئا فشيئا، حتى صات الباب صوتا قديما صدئا يشبه البكاء.

ـ السلام عليك يا شيخ علي.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته..

ردّ الشيخ علي وقد بدا عليه الإرهاق، ووجهه أشبه بإسفنجة جافة.. لم يكن هندامه مرتّبا كالعادة، ولا شعره ممشوطا، ولا لحيته منسدلة بوقار على صدره.

ـ يا شيخ على، أين ذهبت؟.. بحثتُ عنك في كل مكان.. الجميع يبحثون عنك ليسألوك.. لم أجدك في المسجد ولا في الحانوت ولا في المقهى..

ـ إن شاء الله خير..

ـ أين الخير يا شيخ؟ كأنك لست هنا. ألم تسمع الأخبار؟ البلاد ذهبت في خبر كان

ـ مهلك.. مهلك.. قل لي يا حاتم بهدوء، ماذا حدث بالضبط؟

ـ هرب.. هرب.. بن علي هربْ

ـ هرب؟ بن علي هرب؟

ـ نعم غادر البلاد مع عائلته، والوضع خطير يا شيخ علي. لا بدّ أن نلتحق بالأهالي لترتيب الوضع في المدينة، وحماية الناس من العصابات والمندسّين

ـ هذا دور الأمن يا بنيّ..

ـ أي أمن يا شيخ؟ رجالات الأمن أنفسهم هربوا من مواقعهم.. الوضع ضبابي ولا شيء واضح.

ـ هل وصل الأمر إلى هروب الرئيس؟ الوضع كارثي إذن؟ انتظرني قليلا أرتب هندامي وآتي.

أطلق حاتم ولد حبيبة ساقيه للريح، متوجها إلى المقهى حيث يتجمْهرُ بعض الأهالي والفضوليون. فيما تزاحم أمام المخبزة في الضفة الأخرى للطريق، عشرات الرجال والأطفال، رافعين أيديهم للحصول على الخبز، بعد أن أغلقت بعض المخابز أبوابها، وامتنع التجار عن بيع الزيت والسكر والطحين والمياه المعدنية.. خوفا من الآتي.

ظل حاتم ولد حبيبة يراقب الجموع من بعيد، وهي تتناقش وتتحاور بحذر شديد، حول أخبارعنْ حَرْق مراكز الأمن والسطو على الفضاءات الكبرى والمغازات، بل أن بعض رجال الأمن فرّوا من مقراتهم وتركوا أماكنهم للنهب والحرق والاستيلاء على الوثائق والملفات، وحتى الأسلحة.

حاتم ولد حبيبة، لم يتجرأ على أن يقترب من الجموع، مخافة أن يُتّهم بقربه من نظام المخلوع، فقد عرف عنه تقديمه خدمات كثيرة لمعتمد الجهة ويلعب دورا محوريا في الانتخابات البلدية والتشريعية، يجمع الأخبار ويحمل الاستدعاءات، ويراقب المعارضين، ويندسّ وسط الجموع في الأعراس والاجتماعات والتظاهرات الثقافية ليجمع ما يستطيع من إجابات قد يلقيها في وجه معتمد الجهة، حين يستدعيه ويسأله تلك الأسئلة.. عن فحوى التظاهرة، ومن حضر، وماذا قدموا ومن تدخّل أثناء النقاش، ومن عارض، ومن احتج، ومن سبّ، ومن شتم..

وقد تسبّب له ذلك في مشاكل عديدة، ليس أهمّها العداوات مع الأصدقاء وأغلب الذين يعرفونه، ويتهمونه بالولاء الأعمى للنظام الفاشي.. أنا قلتُ النظام الفاشي، وهو في الحقيقة كلام لا يقال في العلن وأمام الجميع، لأن مثل هذا القول قد يسبّب لصاحبه مشاكل كثيرة. ولعلّ من أهم الأحداث التي ظل يتذكّرها، وأثّرت فيه أيما تأثير، ما فعله به حمدي أستاذ الفلسفة، حيث إنهال عليه ضربا وركلا أمام جمهور جاء ليواكب عرضا مسرحيا. ولم يعرف وقتها ما الذي دفع حمدي إلى أن يقوم بما قام به. ولكنه علم أنّ تحركاته المتواصلة لمراقبة حمدي ورصد تصرفاته ومقابلاته، وأقواله في الأنشطة الثقافية والتظاهرات، هيّ التي برّرت سلوك هذا الأخير تجاهه.

اتّكأ حاتم على سياج حديقة عمومية، يراقب الجموع من بعيد يتوسّطهم البرني، وهو يخطب فيهم بحماسة. ظل واقفا يغيّر حركات ساقيه، يثني واحدة ويمدّ الأخرى، أو يتّكئ على السياج بذراعه تارة، وطورا يسند ظهره في حالة من الإنتباه والإستنفار.

حماسة البرني المفرطة جعلت حاتم ولد حبيبة يطرح أكثر من سؤال بينه وبين نفسه عن شرعيّة وجود البرني هنا والآن.. يستغرب من وجوده، بل لم يستوعب أن يكون هنا الآن تزامنا مع الأحداث الحاصلة في البلاد، وبعد غياب لسنوات، لم يكن أحد يعرف أين كان. وإن كان ثمة بعض الأخبار تتحدّث عن وجوده في ليبيا بعد مطاردته من قبل النظام التونسي. البرني الذي ظل غائبا عن البلاد منذ أحداث مدينة سليمان.. هربَ إلى القطر الليبي، وترك أمّه العجوز بمفردها تعاني العجز والوحدة... منذ أن هرب لم يره أحد يزور أهله، أو يجلس في مقهى أو يصطحب صديقا.

بدا أكثر حماسة، بلحيته الكثّة وشعره الغزير، وقد إرتدى لباسا أفغانيا رماديّ اللون.. بدا غريب الهيئة ولكنه بليغ الكلام.. بدا متحكما في اللغة و حادا في الردود على الاعتراضات التي يوجهها له أحد الحضور. ورغم أن مستواه التعليمي لا يتجاوز الباكالوريا، إلا أن خطابه بدا أكبر من مستواه.. كمن حفظه قوالب جاهزة، يرتّبها وينمّقها، ويلقيها في وجه العامة كالأفاعي، فيقبلها

الحضور ويستسيغها، خاصة وهو يحسن تغليف تلك القوالب بالأحاديث النبويّة والسُّوَر وقصص السلف الصالح.

يرتفع الصراخ والصياح والنقيق، كلما زاد عدد المتزاحمين والوافدين، حتى صاروا بالعشرات. ولم يتراجعوا أو يرتبكوا، حين حلّت بالمكان مدرعة للجيش الوطني، وشاحنات ملأى بالجنود.. توقفت على بعد عشرة أمتار من الجموع المتوثبة، وظلّت مرابطة بالمكان، دون أن تَصدر عن الجنود أيّ حركة، بل يبدو أن المواطنين ارتاحوا لوجود عناصر من الجيش، واقتربوا منهم، و ثمة من دخل مع بعض الجنود في حوارات ونقاشات خفيفة، تظهر مدى الإرتياح الذي يشعر به المواطنون لوجود الجيش..في ظل التوتّر القائم ـ بسبب ضبابية المشهد ـ بين المواطنين وأجهزة الأمن والشرطة.

أطلّ الشيخ علي من زقاق قريب، وظل يقترب شيئا فشيئا من المكان، فانتبه إليه العامة، وصمتوا متوجهين بأنظارهم إليه كأنّ خطبا ما أصابهم.

حين وصل وسلّم، رفع البرني يده محرّضا:

- dégage..dégage ..

فتبعه الجميع:

- Dégage.. dégage..dégage

رفع الشيخ علي يده، يريد الكلام، ولكن الناس لم يسعفوه بوقت يتحدث فيه، وواصلوا التلويح بأيديهم والرفع من أصواتهم المشحونة بالغضب والنقمة.

حاول الشيخ علي أن يتقهقر إلى الوراء ببطء، وأن يرفع صوته دون جدوى. لكن صوت حاتم ولد حبيبة جاءه هامسا:

ـ لنعد يا شيخ.. دعنا منهم..

فجأة رفع البرني يده، فعمّ الصمت أرجاء المكان، ووجّه كلامه إلى الشيخ علي:

ـ اسمع يا شيخ.. غادر المكان فورا، واحمل معك ذلك الجرذ وإلا سنُنزل فيك شرع الله.

ـ أنا إمام جامع سيدي علي المحجوب..

ـ أنت إمام المخلوع.. إمام السلطة.. أنت لا تصلح للإمامة أصلا.. ماضيك "ميبون" وحاضرك "زنا".. استغفر الله العليّ العظيم، الآن سقط النظام، وربّ العزّة لنقتلنّكم ولنصلبنّكم على أعمدة الكهرباء، أنت وهذا الغلام، وتلك الفاجرة زانيتك.. سنحكّم فيك شرْع الله، وبإذنه لن يمنعنا أحد.

ـ أنا الشيخ علي يا برني..

ـ شيخ ماذا؟.. أنت شيخ بالمجاز.. أنت صورة من شيخ. بربك قل لنا في أي جامعة قرأت، وعن أي شيخ علم أخذت علمك؟

صاحت الجموع:

ـ الله أكبر.. الله أكبر.. ألله أكبر..

ثم لوّحوا بأيديهم:

- Dégage.. dégage..dégage

بدأ الشيخ علي يتقهقر إلى الخلف، فيما ظلّ حاتم ولد حبيبة ممسكا بجبته كأنه يحتمي به، وخطواته تقلّد خطوات الشيخ المتقهقرة، تدفعه إلى الخلف صيحات الجموع وأياديهم المتوثبة التي قد تفتك بأي شيء يمكن أن يعترضها..

إبتعد الشيخ علي قليلا، ثمّ هرْول في اتجاه زقاق جانبي، يتبعه حاتم ولد حبيبة.

البرني يخطب في الجموع، ويتوعد الكفار والمرتدين والزنادقة والطواغيت..

ـ الله أكبر.. الله أكبر.. الله اكبر..

فردد حرفاء المخبزة المقابلة:

ـ الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

وواصلوا تدافعهم، علّهم يظفرون برغيف من صاحب المخبزة الذي واصل تعنّته، ورفض أن يبيع إلا رغيفا واحدا إلى كلّ حريف، من باب الوطنية، حتى لا يحرم بقية المواطنين من الخبز. هكذا يقول بين برهة وأخرى، كلما أطل برأسه من فوق الجموع المتدافعة.

وصلت سيّدة أمام المخبزة ولم تسعفها أنوثتها ولا بُنْيتها الضعيفة من أن تجد مكانا بين المناكب والأكتاف والأرجل المتدافعة.. مكان يسمح لها بأن تقترب يدها من يد صاحب المخبزة لتظفر برغيف. حاولت أن تدسّ أنوثتها الطريّة، ولكنّ أحدهم زجرها:

ـ بربّكِ أنظري عدد المتدافعين.. ألا تحترمين الناس؟

أكمل جملته، ثمّ ألقى بأعضائه تسبح بين الفراغات بحثا عن مكان. نظرت إليه السيّدة، دون أن تتبيّن وجهه من كثرة التدافع، ولم تسْتطع أن تردّها عليه، بل انسحبت إلى الخلف لاقتناعها أنّ هشاشتها لن تسمح لها بنيل ولو أقلّ من رغيف.

أما السيّد الغاضب، فقد سحب جسده من بين الجموع، بعد أن افتكّ رغيفين، ووقف مع أحد الثوريين يناقش معه مستحقات الثورة ودور المرأة المستقبلي في الشأن العام.

(10)

البرني دخل إلى التراب التونسي من جهة الحدود الليبية خلسة، مستغلا حالة الفوضى التي تعيشها البلاد. والتحق فورا بالجماهير الغاضبة، والتحم مع الجموع التي لم تفهم إلى اللحظة ما الذي يحصل في البلاد، ومن يدفع بالأحداث إلى الإشتعال.

استغلّ البرني خوف الناس وحذرهم، وارتمى بينهم في الساحة العامة، يخطب فيهم، ويدفعهم إلى مواصلة الثورة على الكفر. وصار الجمع يردد خلفه الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر..

البرني ظلّ لسنوات خارج التراب التونسي، بعد أن حُكم غيابيا بتهمة الانتماء إلى تنظيم إرهابي، إثر أحداث مدينة "سليمان".

ظل متخفيا، حتى استطاع أن يدخل التراب الليبي بطريقة غير شرعية، وقد علِم أنّ عبد الله الحرس، هو من وشى به. فداهمت منزلهم أفراد من قوات أمنية متعدد الاختصاصات، فكسروا كل ما صادفهم، وسبّوا وشتموا واعتقلوا والدته المسنّة، بعد أن ضربوها وأهانوها، ثم رموها في سيارة الشرطة كالشاة.

لم يتركوا شيئا إلا فتشوه وعبثوا به، وكسّروا الجرار والأواني ونثروا الأدباش في كل مكان، حتى بدا المشهد كقن دجاج.. دون جدوى.. دون أن يعثروا على البرني، أو أي شيء يخصه، من أوراق مثلا، أو تسجيلات صوتية أو أي شيء يمكن أن يحملوه معهم.

لم يكفهم ذلك، بل توجّهوا إلى منازل أعمامه وأخواله، وداهموا منازل الجيران، وتسلقوا الأسطح المجاورة، واعتقلوا أبناء عمّه للتحقيق معهم.

أمّه التي كُسرت ساقها في عملية المداهمة، ظلّت لأشهر ترزح تحت عذاب الآلام ووجيعة فقدان ابنها الذي لم تتنبّأ حينها، إن كان هذا الابن سيعود أم سيغيب إلى الأبد.. بل ينتابها شعور أن ابنها اعتقلوه وعذّبوه، وربّما مات تحْت التّعذيب، وألقي به في البحر.

ظلّت قوات الأمن تتردّد على منزلها لتسأل عن البرني، بل وتتعمّد إهانتها وإذلالها أمام الجيران. وفي أحيان كثيرة تتم استضافتها في مركز الأمن لتبقى الساعات الطوال تنتظر ما ستؤول إليه التحقيقات. ولكن لا شيئ عدا الذلّ والتحقير والإهانة. ولولا أنها عجوز بالكاد تستطيع الوقوف، لتمّ الإحتفاظ بها في السجن حتى يسلّم البرني نفسه. ولكن قناعة الأمن كانت

راسخة، بأن البرني غادر البلاد، ولا فائدة من الاحتفاظ بعجوز قد تفارق الحياة في السجن بمجرّد دخوله.

ظلّت أمه مريم تعاني المرض وجراح القلب.. تتوسّل ما يمنّ به الجيران عليها لتظل على قيد الحياة، بعد أن تنكّر لها أهلها خوفا من تهمة الاتصال بالبرني، أو المساعدة على إخفائه.. ولكن الجراح أكبر من الإرادة، ففارقت الأم العجوز الدنيا.. صعدت روحها إلى السماء في إحدى ليالي الشتاء القارس، وبقيت ثلاثة أيام ممدّة في فراشها دون روح، ودون أن ينتبه إلى موتها أحد من الجيران، حتى فاحت رائحة الموت من وراء الجدران.. رائحة الموت أكثر الروائح نتونة وعفنا، لهذا يدفن الإنسان تحت أجلاف من التراب، ويغطى بلوحات من الاسمنت، كي لا تخرج رائحة الجسد العفن إلى الأحياء الأكثر عفونة أحيانا كثيرة. لهذا فالأحياء ينفرون من الموتى، لأن رائحة الموت تذكّرهم بروائحم العفنة.

ـ قمنا معها بالواجب، وأوصلناها إلى مثواها الأخير، كما يوصي بذلك ديننا الحنيف.

هكذا قصّ عليه جارهم الحكاية ببساطة.

ـ الله يرحمها.. وانخرط البرني في هستيريا من البكاء، وقد سقط على عتبة المنزل ككيس من الرمل.

أمسك به جاره، وحاول أن يعينه على الوقوف.. فانتصب كظلّ فارغ لا يقوى على أن يظلّ واقفا

ـ أرني قبرها رجاء..

ـ حاول أن تستريح قليلا.. الوضع الأمني ليس على ما يرام، والوقت متأخر.. الصباح رباح..

ـ لا يهم.. رجاء ساعدني على أن أبقى حيا. إذا لم أر قبرها الليلة، لن أنام، وربّما لن أعيش لساعات أخرى.

ـ يا برني.. يا ولدي والله ربي يهديك.. هيا سأريك قبرها

ـ استقلا دراجة نارية، وسلكا طريقا جانبية بعيدة، حتى وصلا إلى المقبرة. إحتاج جاره بعض الوقت ليرتّب أفكاره، وينفض ما علق بالذاكرة من نسيان، وما تراكم من صدإ على صورة مرّ عليها أكثر من خمس سنوات.

ـ قبرها.. قبرها.. آه.. هذا قبرها.. الله يرحمها، ويحسن إليها.

اقترب البرني من القبر، بقي مشدوها بعض الوقت، مغمض العينين، يحاول أن يرتّب بعض الأشياء في داخله. أناخ البعض من جسده قربه، و طوى الباقي على القبر، محاولا أن يحتضنه.

وانخرط في بكاء مرّ.. وهو يهذي بكلام غير مفهوم، ثمّ يعود إلى الكلمات المحفورة على رخام القبر البارد، يتهجّاها ويظلّ يضغط بأصابعه على إسم أمه المحفور بالخطّ الكوفيّ.

بقي على تلك الحال قرابة الساعة، وجاره أمام ذلك المشهد يشعل سيجارة ويطفئ أخرى.. حتى نفد صبره.

ربّت على كتف البرني، وهو ينحني عليه:

ـ برني.. برني.. يكفي يا بنيّ، الوقت تأخّر والأمن غير مستتبّ.. هيّا نغادر رجاء.

ـ دعني.. دعني وشأني.. رجاء أتركني هنا. يمكنك العودة.. إذهب واتركني، وسأبقى لوحدي قليلا .. رجاء.

ـ لك ذلك يا برني، لكن لا تتأخّر.. الوضع غير مريح في البلاد.. أخاف عليك.. يمكنك أن تبيت عندنا الليلة. منزلكم لن تجده في وضع يسمح لك بالراحة.

ـ لا يهم.. شكرا.. دعني هنا.. يمكنك الرجوع

ـ على كلّ.. تصبح على خير.. ولا تنس أنني تحت أمرك في أي خدمة.

بقي البرني ملقى كجثّة حذو مئات الجثث المدفونة تحت التراب، يسند رأسه إلى قبر أمه. يبكي مرّة، ويحادثها أخرى، ويلتفت بين الحين والآخر يتتبّع مصدر صوت قادم من بعيد، كنباح كلب أو عراك قطط أو شجار سكارى.. حتى أخذه النعاس.

أشرقت شمس صباح شتويّ، وأحرقت أشعتها وجهه.. رفع رأسه الثقيلة بالهم والحزن، وانتصب ينفض أدباشه محاولا أن يبدو عاديا كأنه لم يبت هناك بين القبور.. بسط كفيه يقرأ سورة الفاتحة، وغادر المقبرة في اتجاه بيتهم القديم.

لم يتذكّر كم من الوقت قضاه مُلقى على شبه سرير في إحدى غرف منزلهم الآيل للسقوط، ولم يتذكّر كيف دخل المنزل أصلا ولا كيف فتح الغرفة.. التعب كان يشدّ على كلّ أعضائه، ويمسك بأعصابه وشرايينه، فهو قد قطع عشرات الكيلومترات على قدميه، وهو يتجاوز الحدود الليبية التونسية، مستغلا حالة الفوضى التي دخلت فيها البلاد.

حين نهض من نومه الطويل، اتكأ على ظهر السرير.. أشعل سيجارة لتعينه على أن يمسح ببصره أركان البيت.. لا شيء تغيّر.. البيت كما تركه منذ سنوات، عدا بعض الفوضى وأدباش ملقاة هنا وهناك.

صورة كاملة لوالده بالأبيض والأسود على كتفه بندقية، أُخذتْ له في أحد جبال الشمال الغربيّ كما أخبرته أمّه، متخذة نفس المكان في الحائط المقابل للسرير.

قالت له أّمه إن والده كان من اليوسفيين الذين تمّت تصفيتهم، ولكنها لم تقل له كيف مات والده، وإلى الآن لا يعرف كيف مات ولا أين قبره.

أمي لم تكن تحكي كثيرا عن والدي، ربما لأني ما زلت لا أفقه شيئا كما تقول. أو ربما كانت تنتظر أن أصبح رجلا بالمعنى الحقيقي للكلمة، لكي تسرد لي حكاية والدي الذي تمّت تصفيته غدرا، نعم "والدك مات في السجن، ودفنوه ليلا على عجل.. عندما تكبر سأحكي لك عن والدك.. والدك الشهم والمثقف، الذي قرأ القرآن كله.. عندما تكبر يا ولدي سأحكي لك كل القصّة. القصّة التي ستحكيها لأبنائك وأحفادك.. ولكن ليس الآن.. ستبقى الحكاية في قلبي، بين أضلعي وفي شراييني.. ستبقى حكايته محفورة في كل أوردتي.. في الجدران.. في الأبواب.. في وشْمي الأزرق المحفور على ذقني، إلى أن تصبح قادرا على حَمل هذا الحِمْل الثقيل"

ظلّت تؤجل ذاك الحمل الثقيل، إلى أن إقتلعتني البلاد من جذوري، من الداخل إلى الخارج. وطُردتني من أرضي إلى أرض أخرى عشتُ فيها غريبا لاجئا.. ظلت تؤجّل ذاك الحمل، إلى أن خطَر ببالها أن تبوح به، ولكنها لم تجدني، فحملت سرّها معها إلى قبرها، ودون أن أشاركها ذلك الحِمل، ولا فتحتُ صفحات الكتاب الذي ضم بين جنباته حقيقة والدي وحياته وموته الفجئيّ في أحد معتقلات النظام الوحشيّ.

صورة كاملة لوالدي بالأبيض والأسود على كتفه بندقية، أُخذتْ له في أحد جبال الشمال الغربيّ كما أخبرتني أمّي، متّخذة نفس المكان في الحائط المقابل للسرير.

بجانب صورة والدي صورة صالح بن يوسف التي لم يأخذها رجال البوليس معهم عند مداهمة المنزل بحثا عني، ربما أولائك الأغبياء لا يعرفون شكل صالح بن يوسف ولا صورته، وربما لا تهمّهم الصورة في شيء.

على الجدران لا وجود لصورة أمي.. خزانة ملابس مُشرعة للريح، يبدو أن بعض الأهل أو الجيران فتشوها وسرقوا ما بداخلها فور وفاة والدتي، أو ربّما بقايا الأعمال الدنيئة التي كان يقوم بها البوليس بحثا عن حقيقة وهميّة.. أصلا لا شيء عند أمي له قيمة يمكن سرقته.. كرسي خشبي وطاولة صغيرة عليها تلفاز نوع "قرطاج" بدأ الصدأ يأكل جنباته وبلوره. فيما تدلّت من السقف خيوط العناكب، والغبار يغطي كلّ شيء.. حتى أنّ السرير الذي نمتُ فوقه يبدو أنني لم أتفقده، وألقيت جسدي على جنباته دون أن أنتبه إلى كمّ التراب الذي يغطيه، ودون أن أعير أيّ أهميّة لأزيزه وخشخشته..

لا شيء يوحي أنّ البيت كان مفتوحا ودافئا.. لا شيء يوحي أنه كانت ثمّة حياة بين جدرانه وأشيائه. لكنني فتحتُ الذاكرة على الحياة التي كانت هنا.. أمي كانت تجلس هناك تحت نفس الجدار الذي علّقت عليه صورة والدي. تحت نفس ذلك الجدار، تبسط أدوات الغزل أو تنظف صوفها المعدّ للنّسْج، أو تعدّ عولتها ونحن على أبواب الشتاء..

أما صيفا، فساحة المنزل على صغرها كانت ذاكرتي وألعابي ولهْوي.. كانت طفولتي. كانت أمي تخاف عليّ من أن أتعرض إلى أيّ مكروه، لذلك لا تسمح لي باللعب في الزقاق مع الأتراب، فكانت تُدخل أبناء الحي إلى منزلنا لنلعب في نفس تلك الساحة، تظل تراقبني ولا أغيب عن أنظارها لحظة.. حتى وأنا أدرس في التعليم الثانوي، كانت تلحق بي إلى المعهد، وكثيرا ما تعترضني في الطريق إذا صادف أن تأخّرْتُ قليلا عن موعد العودة. كانت كثيرا ما تسبّب لي حَرَجا مع أصدقائي.. ظل خوفها يعيش معها، منذ أن فقدَتْ إبنتها البكر، ثم فقدت والدي تباعا.

أختي التي دهستْها عجلات عربة حصان هرب من صاحبه، حصان غاضب عبر الزقاق الضيق كغول أسطوريّ وهو يجرّ عربة كأنها من عالم أسطوريّ.. دهس أختي إبنة الخمس سنوات، وتركها تتخبط في دمائها، وهرب إلى النسيان راكضا في خبب جنونيّ، وصاحبه يركض كالمعتوه للإمساك به.. كانت صغيرة جدا، لم تنتبه أمي إليها عندما خرجت على غفلة منها، فكان مصيرها الدهس تحت عجلات عربة مجنونة، وحوافر حصان شارد.. منذ تلك الحادثة زاد خوف أمي وحذرها، بل تحوّل خوفها من قلق عاديّ إلى حالة مرضية.

نهض البرني من سريره مثبّتا بصره على صورة والده المعلّقة على الجدار.. ألقى سيجارته على الأرض وداسها بحذائه الخشن. إقترب من الصورة، ومرّر يده على بلّورها عله يمسح ما علق من غبار على ملامح الصورة، وظلّ يمرر سبابته على البندقية من أعلى إلى أسفل.. من أسفل إلى الأعلى.

قطعَ حبل أفكاره أزيز بعض الرصاصات، فأسرع إلى خارج المنزل.. فتح الباب وأطلّ برأسه من الجهتين، دون أن يرى أحدا في الزقاق الطويل الضيّق.

صوت الرصاص لعلع من جديد متقطعا، فمرّت بذاكرته لحظة فراره من تونس إلى القطر الليبي، بعد أن وشى به عبد الله الحرس فترك البلاد وترك بيته وأمه. ولولا هذه الفوضى التي تعيشها البلاد، لَما أمكن له أن يعود إلا ميتا، أو ربما مات هناك ورفضت السلطات التونسية استقبال جثته، ومن سيتسلم جثته بعد موت أمه العجوز؟

ـ عبد الله الحرس.. لن تسلم من غضبي، سأقضي عليك كما قضيت على أحلامي، ودفنتَ أمي في الغياب.. سأقتلك شرّ قتلة.. سأقتلك كما قتلت أحلامي وأفكاري وعائلتي.

دارت برأسه فكرة الانتقام، وقرر أن يقتل عبد الله الحرس ليكون عبرة لغيره من القوادين. هذا الطاغوت لا بدّ أن يموت.. هذه البلاد يحبّها الله لأن شعبها سينتصر على الطغيان ويطيح برؤوس الطواغيت، لهذا لا بدّ أن ألتحق بالجماهير الغاضبة، وأبحث عن إخواني الذين فقدتهم، لرصّ الصفوف من أجل الاستفادة من هذه الفرصة التاريخية.

المهم الآن لا بدّ أن أحقّق شرع الله، وأنفّذ في عبد الله الحرس ما أمر الله به.

قرّر البرني لحظتها، أن يصفّي عبد الله الحرس لأنه وشى به إلى مخابرات بن علي، مما جعله يهرب من تونس كفأر، من مصيدة إلى بالوعة، ولم يتسنّ له حتى حضور جنازه أمّه.. أمّه ما تبقّى من أهله الذين تنكّروا له. ربما هذا هو سبب تفكيره في تصفية عبد الله الحرس. ولكن يبدو أن إيديولوجيا ما تحرّك البرني، وهي التي دفعته إلى قتل عبد الله باعتباره من الطواغيت.

(11)

اتصل الشيخ علي بحبيبة، بواسطة الهاتف الجوال، وأخبرها أنه يريد مقابلتها، وألحّ عليها كي يلتقي بها فوافقت، بشرط أن يزورها في البيت ليلا، لأن الوضع غير آمن، ولا يمكنها أن تلتقيه في حانوته، مخافة الوشاية أو التعرّف على علاقتها بالشيخ علي. هذا من ناحية.

من ناحية أخرى ثمة حالة من الفوضى، ولا أحد بإمكانه أن يقرر مصيره، في ظل حالة الفلتان التي تعرفها البلاد.

ـ ثمة حظر تجوّل، والرصاص الطائش ينتشر في الأزقة وفوق السطوح.. وفي كل مكان.

ـ إذن أنت الأقدر على أن تغامر وتأتي

ـ حاضر يا حبيبة، سألتقيك السادسة مساء

ـ (قاطعته) حاتم يكون في ذلك الوقت في اجتماع.. قال لي البارحة، أنه سيأتي متأخرا.

ـ سيكون ما أردتَ.

أغلق الهاتف الجوال، وأعاده إلى جيب ميدعته، وارتخى على طرف السرير، يُعيد مشهد طرده من وسط الجمع الذي يقوده البرني، ويحرض فيه الناس على التمرّد والفوضى والجهاد.

وقد علم بعدها، أنّ جمعا آخر في طرف المدينة يقودهم حمدي أستاذ الفلسفة، يرفعون عديد الشعارات من قبيل "شغل، حرية، كرامة وطنية"، وشعارات يسارية، لم تعهدها البلاد. بل الأدهى من ذلك أن تلك الفاجرة ليلى ابنة عائشة، تقف حذوه، وتصيح وتحرّض وتَرفع الأصابع علامات النصر وسط جموع من الرجال. تركت فجيعتها في زوج أمّها، وبيتهم الذي ما زال بعض الناس يتوافدون لتقديم العزاء.. وانضمّت إلى الجموع الغاضبة التي خرجت في كل الأحياء والشوارع، منذ أن أحرق صاحب العربة جسده في الساحة العامة.

ليلى التي خرجت مع من خرج إلى الشوارع، هي في الحقيقة إنضمّت إلى حمدي أستاذ الفلسفة المتأثرة بآرائه، بل أكثر من ذلك، هي تحبّه إلى حدّ الجنون.

ربّما لو كنتُ مع هؤلاء لما أهانوني ـ قال الشيخ علي بينه وبين نفسه.

.. عليّ الآن أن ألتقي بحبيبة، وأنبّهها إلى أنّ خبر علاقتنا قد انتشر كالنار في الهشيم.. ما دام بعضهم اتهمني بالزنا، هذا يعني أنّ أحدهم كشفني. بل لم يُبْد الجموع استغرابا من التهمة التي نسبها إليّ أحدهم، بما يعني أن الخبر انتشر، وصار الجميع يعرفه.

لم أنتظر حتى السادسة، كنت ملهوفا لأرى حبيبة، وأحذّرها.

في هذه الليلة العصيبة، الكلّ خائف ومرتبك.. مؤسسات محروقة، وقتلى وجرحى ومسيرات هنا وهناك، ومداهمات وسرقات، وإشاعات.. وفي كل هذه الفوضى اكتشفوني.

ـ أنتَ إمام المخلوع.. إمام السلطة.. أنت لا تصلح للإمامة أصلا. ماضيك "ميبون" و حاضرك "زنا".

هكذا صدَحَ البرني أمام الجميع دون أن يُثير كلامه استغراب الحضور، رغم أنّ البرني غادر البلاد منذ سنوات، فكيف علم بالأمر. هل ثمّة من يبلّغه بأخبار البلاد وهو في الخارج؟

هل ثمّة خلايا نائمة، تتبع ذلك التنظيم الذي قام بعملية سليمان، هيّ من كانت تُعلمه بواقع البلاد وأخبار الناس؟

أم أنّ أحد الحضور أعلمه بكلّ تلك التفاصيل فور عودته.. سأشكي همّي لحبيبة، وأحذّرها لأنني "زاني"، ولكن لمن سأشكي وقد اتّهمتُ "بالوبنة".. قال لي بصريح العبارة "ماضيك ميبون".

عادت بي تلك الجملة إلى تلك الواقعة.. إلى ذلك الجرح.

كمن فتح جرحا وملأه ملحا.. عادت بي تلك الجملة إلى مسام الروح.. إلى الطبقات السفلى للوعي.. أنا لم أُشفَ من ذلك الجرح، بل كلما اعتقدت أنّ الزمن قام بدوره كمطهّر ومعالج للجرح، كلّما غار الجرح أكثر وصار أكثر قدرة على الإيلام.

بمجرّد أن حلّت الخامسة، حتى كان الشيخ علي منتصبا أمام المرآة يرتّب هندامه ويسوي برنسه.. وغادر في اتجاه منزل حبيبة.

حين وصل الباب، طرقه طرقا خفيفا وهو يلتفت يمنة ويسرة، مخافة أن ينتبه إليه أحد المارة.. كان يسير مهرولا ومرتبكا يمسح الشارع ببصره مخافة اعتداء أو إصابة أو رصاصة طائشة.. بدأ الحديث عن قناصة فوق سطوح المنازل، وسيارات إسعاف يُطلق منها الرصاص، وسيارات على وجه الكراء يقودها عناصر من الأمن الرئاسي يقتلون كل من يتحرك أمامهم.

في ظلّ الفوضى والحديث عن هروب أفراد من العائلة المالكة، بعضهم هرب متخفيا في سيارات أو شاحنات، وبعضهم تحت حماية الجيش أو الشرطة.. تضاربت الأخبار والأحاديث من هنا وهناك، ولا أحد يملك الحقيقة، عدا أنّ على كل فرد أن يحمي نفسه وعائلته لا غير.

لهذا كان يهرولُ تارة ويتوقّف أخرى كلما مرّت سيارة أو شاحنة، يحاول أن أقترب إلى الجدران قدر الإمكان، فاتحا بصره وبصيرته في كل الاتجاهات. ورغم أنّ الجبّة لا تساعدنه كثيرا على أن يكون سريعا وخفيفا، أمكنه أن ينعطف إلى الزقاق الضيّق حيث منزلها.

فتحتْ حبيبة الباب وأدخلته بسرعة.

ـ السادسة لم تحن بعد

ـ لا يهم.. المهم أن أراك وأتحادث إليك.. ثمة مسألة خطيرة لا بدّ أن تعلميها

ـ أدخل واسترح أولا، وسنتحادث

دخل الشيخ علي إلى غرفة الجلوس.. هذه هي المرّة الثانية التي يزور منزل حبيبة، مرّة حينما حاول أن ينقل إليها إعانة من أحد الأعيان، وتكفّل طفل بأن دلّه على منزلها. فتحت له زاوية من الباب، وأطلّت بحياء. وفور علمها بأنّ الشيخ علي يحمل إعانة بعد وفاة زوجها اعتذرت ورفضت أن تتسلّمها.

ـ مستورة والحمد لله

ـ حبيبة هذه ليست منّة.. هذا واجب، والله العظيم لا أحد يعلم بهذا غيري.. هذا رجل تقيّ يريد أن ينال أجرا.

ـ بارك الله فيك يا شيخ.. سامحني لا أستطيع أن آخذ منك شيئا

ـ هذا قرارك النهائي؟

ـ شكرا.. قلت شكرا وسامحني

ـ على كل حبيبة، إذا احتجت أيّ مساعدة لا تتردّدي في الإتصال بي. نحن إخوة في البلاد وفي الإسلام، وعلاقتنا لا تحتاج إلى أن نتحادث حولها.

ـ بارك الله فيك يا شيخ علي..

ـ العفو.. العفو.. نحن إخوة حبيبة

ـ بارك الله فيك يا شيخ علي.

كانت تلك زيارتي الأولى لها قبل أن تصبح علاقتي بها حميمية وعميقة، أكثر من مجرّد لقاء حميميّ يجمعني بها في ذلك الحانوت الضيّق.

هذه المرة الأولى التي أدخل منزلها.. لم يكن منزلا فخما، ولكنه بسيط وجميل.. قاعة الجلوس بها أرائك جميلة رغم أنها قديمة.. تلفاز متوسط الحجم فوقه إطار يتوسطه صورة رجل مفتول

العضلات بشارب عريض، خمّنتُ أنه زوجها من خلال حكاياتها عنه. أنا قلت خمّنتُ، رغم أنني صادفته في مرات قليلة عندما ياتي إلى الحانوت لقضاء غرض ما. غير أن هذه الصورة المثبّتة في إطار فضيّ متكئ على ظهر التلفاز، كانت صورة قديمة، ربما ألتقطت له في السنوات الأولى من زواجه، أو ربما صورة أخذت له قبل زواجه بسنواتن وظل يحتفظ بها لقيمتها الرمزيّة.

مفروشات من زرابي تقليدية، وطاولة صغيرة الحجم تتوسط القاعة عليها باقة ورد بلاستيكي ومنفضة سجائر، بجانبها علبة سجائر مالبورو، خمّنتُ أنها لابنها حاتم، رغم علمي أن حبيبة تدخّن أيضا، مع أني أشكّ أنها تدخّن بحضور ابنها.

ـ تفضل يا شيخ.. لماذا تقف هكذا شاردا؟

ـ شكرا حبيبة.. في الحقيقة قدومي إلى هنا لسبب مهم وخطير

ـ إن شاء الله خير

ـ خير يا حبيبة.. إن شاء الله خير

وأطلق العنان لعينيه تلحسان جسد حبيبة الممتلئ.. كانت ترتدي تنورة قصيرة تكشف جزءا من فخذيها ونهديها، وتركت شعرها ينسدل على كتفيها وظهرها. ربما كانت تستعد للإستحمام قبل موعدها في السادسة مع الحاج علي، ولكن الحاج حلّ منذ الخامسة، وقطع عليها حبل الاستعداد وحفل الزينة.

ما زالت حبيبة مغرية رغم سنوات الحرمان والترمّل وألسنة الناس.

ـ ما زلتِ كما أنتِ حلوة ومُغرية

ـ يا حاج قلنا أنّ هذا الموضوع انتهى.

ـ انتهى.. كيف ينتهي؟ هل يحق لكِ أن تُنهيه بمفردكِ؟

ـ يكفي يا شيخ، الناس صاروا يتكلّمون، وأخاف من الفضيحة

ـ الناس دائما يتكلّمون، ولا شيء يفعلونه غير القدح في أعراض الناس

وبدأ الشيخ علي يقترب من حبيبة ويمرر يده على فخذها، في الوقت الذي أبدت حبيبة ممانعة لسلوك الشيخ علي، وهي في الحقيقة تتصنّع ذلك..

ـ يكفي يا شيخ.. رجاء يكفي نحن كبرنا، لم يعد يليق بنا..

ـ كبرنا؟ هههه .. ما زلنا شبابا يا حبيبة، وأنت ما زلتِ كما أنتِ ممتلئة ومغرية، أفضل حتى من بنت العشرين.

واصل الشيخ تمرير يده، وترك لها العنان تمسح فخذيها، وترتفع جهة البطن، حتى أمسك بنهدها وارتمى عليها كالمسعور يلعق رقبتها وشفتيها، دون أن تُبدي حبيبة أي ممانعة، عدا ترديدها جملة "يكفي يا شيخ.. بالله عليك كفّ عن هذا.." لكن الشيخ علي نزع جبّته وواصل ينهش لحمها الغض الآيل للترهّل.

مرّت قشعريرة ساخنة إلى كامل جسد حبيبة، فأمسكت الشيخ من يده وركضت به إلى غرفة النوم، وانهمكا في لعبة تعوداها أكثر من مرّة، حتى أخذهما السرير إلى منتهى اللذة المتعبة.. شيخ يعلن فعل الجهاد في امرأة كالفرس الجموح، لم تهدأ لها رغبة، ولم تكف عن طلب المزيد. وكلما ازدادت المتعة زادت حبيبة جمالا وإغراء.

سُمِعَ صوت رصاص متقطّع، ثم صوت قويّ لشيء كُسِرَ، ربما باب المنزل خُلِعَ، بما يُشبه عملية مداهمة.. صوت الرصاص توقّف، ولكن الشيخ علي ارتبك، فيما سحبت حبيبة الغطاء تحاول أن تستر به جسدها. غير أنّ من خلع الباب هو حاتم ولد حبيبة، وانغرس كالسهم في غرفة النوم، حيث الشيخ علي ما زال شبه عار، وأمه ممدّدة على السرير لا يظهر منها غير نصفها الأعلى العاري تماما.

أصابت حاتم حالة من الدهشة.. ظل واقفا كصنم قديم، فيما واصل الحاج علي ارتداء ملابسه بطريقة مرتبكة وعاجلة. أما حبيبة فانخرطت في بكاء حارق وهي تخفي وجهها بكفيها، دون أن تتمكّن من تبرير الحالة بالقول أو بالفعل أو حتى بالحركة.

ظل حاتم واجما، يحاول أن يُدخل أجزاء المشهد إلى بوتقة الإبصار، ومنها إلى رفوف العقل ليحلل ما يحدث أمامه، دون جدوى.

أمكن للشيخ علي أن يتسلّل خارج الغرفة، وبعض ثيابه تحت إبطيه.. انزلق من بين إبط حاتم وخدّ الباب، وانطلق بما أوتيَ من جهد، يحاول أن يَنفذ بجلده، أمام ذهول حاتم، الذي بقي واجما يحاول أن يستوعب المشهد الذي وجد نفسه قبالته مُكرها.

شعر بدوار وثقل في الرأس.. وبعض الضباب يصّاعد من قاع الغرفة ليُحيط بكلّ شيء في الفضاء الضيّق. بدأت الأشياء أمامه تفقد بريقها وتفاصيلها، بفعل ضبابية المشهد.. شعر للحظة أنه سيفقد البصر، وأنه لم يعد يرى شيئا. ولكنّ غليانا كثيفا بدأ يشعر به في جنباته وجمجمته، وبدأت حرارة تخرج من أذنيه وعينيه وفمه.. صار ينفث بخارا كخوار ثور مجروح.

لم يعرف الشيخ علي كم من الوقت قضّاه في الركض، حتى رأى حاتم وراءه من بعيد يركض خلفه.. زاد في الجهد المبذول، غير أنّ جسده لم يطاوعه، وتضاعفت دقّات قلبه وانهارت قواه.

فيما زاد حاتم من سرعته، وهو يلّوح بسكينه الذي ربّما قتل به أمه حبيبة.. الشارع فارغ تقريبا، إلا من بعض السيارات المسرعة أو الدراجات النارية. وحالة من الحزن تصبغ الشوارع والأنهج.. الحوانيت مغلقة، ورائحة مطاط مشتعل، تطغى على كلّ الروائح.

إنتبه الشيخ علي إلى زقاق ضيّق، بمجرّد أن أدركه حتّى إنعطف نحوه، واختفى في الظلام.

واصل حاتم ركضه، ولم ينتبه إلى الشيخ علي حين انزلق إلى الزقاق الضيّق، وتاه في الغياب.

ظلّ الشيخ علي ملتصقا بأحد الأبواب في زاوية مظلمة، حتى انتفخت قدماه، وهو يقف في البرد بنصف ثيابه، والنصف الآخر تحت إبطيه.. كدّس تلك الثياب على الأرض وشرع في ارتدائها بارتباك شديد، وهو يدعو الله في سرّه أن لا ينتبه أحد المارة، أو يخرج أحدهم من منزله القريب، فيرى الشيخ علي يرتدي ملابسه.. فضيحة، بكل المقاييس. الرجل يعرفه الجميع، ويحترمه كثير من الناس..

"لا يهم، لو رأوني سيُرجعون ذلك المشهد إلى حالة الفوضى التي تعيشها البلاد.. كل شيء اليوم لا يخضع للقاعدة والانضباط.." قال في نفسه.

أطلّ من كلّ الجهات.. حاول أن يمسح المكان المظلم ببصره الضعيف، حتّى تأكّد من خلوّ المكان، وحاول أن يتسلل إلى الشارع الرئيس في اتجاه بيته، بعد أن أكمل ارتداء ملابسه.

ظل يمشي ببطء حينا، وأحيانا يحث الخطى، وقد تهيّأ له أن شخصا ما ينتصب فوق بناية ويوجه فوهة بندقيته إلى صدغه. يلتصق بالحائط، ويدقق النظر في الشيء المقرفص فوق البناية، دون أن يسعفه بصره بأن يتأكّد من شيء ما. يشرع في تحريك رأسه ويديه.. ساقه اليمنى، ثم اليسرى. ينحني قليلا إلى الأمام ثم يتراجع، محاولا رصد ردّ فعل الشيء المقرفص فوق البناية.

" إنه لا يتحرك.. لماذا لا يتحرك؟ هههههه أعتقد أنه ليس شيئا آخر غير صحن هوائيّ لالتقاط القنوات التلفزية. لماذا خُيّل إليّ أنه قنّاص يترصّد جمجمتي. هل هي حالة الخوف؟ أم حالة الفوضى التي تعيشها البلاد؟ أم هو الكبر والخرف؟"

واصل سيره بنفس الارتباك، حتى أدرك الزقاق الضيّق الموصل إلى بيته.

حين أدرك بيته، شرع يفتّش عن المفتاح في جيوبه الخارجية، بعد أن تأكّد أن لا أحد يتبعه.. دخل الغرفة، وشرع في نزع ملابسه، ثم ألقاها بإهمال على الأرض دون ترتيب، وتمدّد على سريره مرتعدا ومرتبكا.. ماذا عساه فعل لحبيبه؟ هل قتلها؟ هل أوغل في توبيخها وسبّها وشتمها فقط ؟ أم إنهال عليها ضربا وركلا على كلّ جزء من جسدها؟ ولكن أنا رأيته يلوّح بسكين.. وما أدراني أنه سكين، ربّما كان شيئا آخر، وتصور لي أنه سكين في ذلك الوقت، وأن بصري الضعيف حال دون أن أتبيّن عكس ذلك. هل تخيّلت السكين، مثلما ما تخيّلت القناص فوق سطح تلك البناية، واتضح لاحقا أنه طبق هوائيّ.. ربّما.

على كل، أنا ما الذي يهمني من حبيبة، وابنها العاق؟.. أنا نفَذْت بجلدي. وماذا لو لحِق بي حاتم، وسدّد لي عديد الطعنات بسكينه؟ آه السكين.. السكين.. نعم رأيت السكين بيده.. أنا متأكد أنه سكين، ويلمع تحت بريق أضواء الشوارع، ربما ما رأيته يلمع كالوميض، وبان لي من بعيد، ليس شيئا آخر غير الدماء.. دماء حبيبة.. نعم دماء حبيبة.

يا الله الأكيد أنّه طعن حبيبه أكثر من طعنة في مناطق حساسة من جسدها، إذن.. ما الذي سيحدث الآن؟ هل سيلحق بي إلى هنا.. إلى بيتي؟ ليسدّد لي نفس الطعنات بنفس السكين.. بمن سألوذ؟ هل أعلم الشرطة؟ ههه شرطة ماذا أيها الأبله؟ البلاد في حالة فوضى، والشرطة نفسها لا قدرة لها على حماية وجودها.. ولنفرض أن أحدهم سمع شكايتي وتعاطف معي في محنتي وخوفي من حاتم الذي ربما يصل لقتلي، ماذا سأقول لرجال الأمن؟ هل أقول لهم أني كنت في سرير أمه، وأن أمه هذه عشيقتي منذ سنوات؟ وأن حاتم حين وصل إلى منزلهم وجد أمه عارية في حضني.. هل هذا تبرير.. يا ربّ أنقذني من هذه المحنة.

ظل ملقى على ظهره، كخنفساء سوداء على الرمل.. بصره يمسح السقف الرمادي المتشقق والملبّد بالغبار، وغاب في وحْل الذاكرة.. رأى فيما يرى النائم، أنّ رجلا ضخم الجثّة عريض المنكبين، كثيف الشعر كبدائيّ منحدر من العصور الحجرية، يركض خلفه بسكين من صوّان في غابة ملأى بالأفاعي والحشرات.. يحاول الشيخ علي وهو عار تماما، أن يهرب منه، والرجل الضخم يركض خلفه يتدلى منه قضيبه الغليظ بحجم قضيب بغل أو يزيد قليلا.. يركض الشيخ علي، وهو يتحسس إليته المترهّلة، يلتفت حينا ليحدّد مكان الرجل الضخم، وطول المسافة التي تفصله عنه، ثم يُلقي بصره إلى الطريق يتحسس به المسالك والثنايا، محاولا أن يتحاشى الثعابين والأفاعي والمطبّات التي صنعتها الطبيعة القاسية في هذه الغابة الكثيفة.

ما زال يركض، والرجل الضخم يركض خلفه ملوّحا بسكينه الحجريّ، وقضيبه يتدلى أمامه يضرب الأرض، ويكسر به النباتات والأشجار الصغيرة.. زاد خوف الشيخ وزاد ارتباكه وانهارت قواه.. التفت خلفه، لكن هوّة سحيقة ابتلعته، وغاب في الظلمة.

انتفض الشيخ علي من حلمه مرتعد الفرائص.. فتح بصره على جسده الملقى على سريره، وهو يتحسس إليته، وقد تصوّر له قضيب ذلك الكائن على الحائط. فرك عينيه بارتباك، فغابت الصورة في غياهب الغبار الذي يغطي ذلك الحائط المتداعي.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

إرتمت إلى ذاكرته صورة ذلك الوحش الذي نهش لحمه، وألقى به إلى ذلك الفراش، حيث ظل ممدّدا على ظهره، والعائلة التي إلتفّت حوله، تغرز في جسده المنهوش سهام الإدانة والتحقير والشفقة.. وكل المشاعر المتناقضة والمتضاربة.

حضر شقيقه وتحرشاته.. حضرت حبيبة وحاتم وعبد الله الحرس.. تداخلت الوجوه وامتزجت الألوان، وضاعت السمات والملامح وتلاشت.. ولم يبق إلا وجه ذلك الوحش الذي إغتصبه للمرّة الأولى.. ظل وجهه يتماوج.. يحضر ويغيب.. يعلو وينخفض.. ويستقرّ مرسوما قبالته على الجدار المقابل.

(12)

حاتم ولد حبيبة، ظل هائما وسط شوارع المدينة ملوّحا بسكينه دون أن يعترضه أحد عدا بعض السيارات القليلة المسرعة.. كل المدينة ترزح تحت ويل الصدمة بعد هروب الطاغية.. الحوانيت والمقاهي كلها مغلقة عدا بعض العجلات التي تحترق هنا وهناك، أو بعض الأفراد يتسللون إلى منازل أو مؤسسات بغرض السرقة والسطو..

مرّ بأهمّ الشوارع باحثا عن الشيخ علي.. كان يبحث في البداية، ولكن بعد ذلك يئس وواصل تيَهانه يركض مرة ويسير ببطء أخرى.. يتوقف ليلتفت خلفه أو على جانبي الطريق. أحيانا يتكئ على عمود كهرباء أو سيارة رابضة أو يجلس على رصيف، دون أن يلتفت إليه أحد من الناس القلائل الذين يمرون مسرعين خائفين. تمرّ عربة عسكرية أحيانا أو شاحنة تقل جندا أو سيارة إسعاف أو إطفاء تسبقها صافرتها الحزينة.. أرخى جسده إلى الخلف ممدّدا على ظهره كالسلحفاة ومد ذراعيه يمينا ويسارا.. سحب سيجارة أشعلها فيما لا تزال السكين ملطخة بالدماء ملتصقة بيده اليمنى كأنها جزء من الجسد. سحب نفسا طويلا وألقى ببصره إلى السماء الملبدة بسحب حزينة رمادية يسأل نفسه لماذا اقترف تلك الجريمة النكراء؟ أيعقل أن يقتل أمه؟

هل ساندته الطبيعة في حزنه، دافعت عن حقّه في أن لا يكون سعيدا، وأن يمرّغ مشاعره في دماء مدنّسة بالخيانة، بل وألقته تلك الطبيعة إلى أرصفة بلد يعيش مخاضا عسيرا، والدماء تسيل هنا وهناك. وكأنّ حاتم أراد أن يساهم بدماء غير تلك الدماء التي من المفترض أن تسيل.

ما لم أستسغه، أن تكون لأمي علاقة بالشيخ علي.. الشيخ علي الإمام التقيّ المُتّزن؟ وإن يكن.. لا.. لا.. هذا زنا.. هذه خيانة لي ولوالدي.. أنا لم أقصد قتلها.. حَضَر الشيطان وحضَر الغضب.. لماذا يحصل معي هذا؟

أنا كنت رحيما بها طعنتها طعنة واحدة.. لا أعرف إن كانت الطعنة قاتلة أم لا.. تركت لها مجالا لتحيا..

ـ فهمتُ الآن لماذا رمى البرني الشيخ علي بالزنا.. آه كان يقصد علاقته بأمي.. هل هذا مؤكد.. لا أعرف.. ما أعرفه أنني كنت بجانبه كالغبي "الطحّان" لم أفهم ما يدور حولي، والموضوع يتعلّق بأمي..

لولا أن الاجتماع انتهى قبل موعده لمَا حضرتُ إلى بيتنا في ذلك الوقت ولما رأيت ذلك المشهد الصادم ولبقيتُ عمري كله "طرطورا" يتهامس الناس خلف ظهري، ومن حولي ولا أفقه شيئا.

لو لم يكن السكين معي في طيات ثيابي، ربما لما وجدت ما به أطعنها.. كان السكين معي لحماية نفسي من الانقلابيين. مهما يكن، لو انتهى الاجتماع في وقته، لما أمكن لي أن أوجد في ذلك الوقت في بيتنا.. في تلك الغرفة. نفس الغرفة التي كان والدي يقضي فيها أغلب وقته نائما أو يحتسي خمرته المقدّسة. نفس الغرفة التي كانت تجمع والدي بأمي.. أمي الزانية التي إحتقرت أبي وخانته في قبره.

ولما رأيتُ أمي عارية والشيخ علي يحاول أن يستر جسده، بعد أن اعتلاها كبغل، حضرت صورة والدي في ذلك البخار الذي خرج ساخنا من قاع الغرفة، رغم أنّ صورته ما زالت معلّقة على جدار من غياب.

أنا لبّيتُ نداء الواجب، حين طُلبَ مني أن ألتحق بالإخوة، للنظر فيما آلت إليه البلاد بعد هروب السيد الرئيس إلى الخارج. كان لا بدّ أن نجد حلا لما آلت إليه الأوضاع، ومما فهمته فإنّ كلمة السرّ مرّت من القيادات إلى القاعدة في كلّ الجهات، من أجل قطع الطريق أمام الانقلابيين.

كان القرار الوحيد الذي اتخذناه، هو استئجار بعض المجرمين والعاطلين، لحرق المحاكم ولجان التنسيق والمكاتب المحلية والجهوية للحزب، بغية التخلّص من الوثائق والإدلّة التي يمكن أن تدين الحزب. هذا أهمّ قرار وقع اتخاذه لإنقاذ البلاد من الانقلابيين والفوضويين، وحتى لا تقع تلك الوثائق بين أيديهم، ليستغلوها ضد الحزب ومناضليه.

كان الاجتماع يسير بشكل عاديّ في أحد منازل مناضلي الحزب، في حيّ شعبي حتى لا تطالنا عيون المتطفلين.

كنا نسمع صوت الرصاص مِن حين إلى آخر دون أن نُعيره أي انتباه، ولكن يبدو أنّ الوشاية فعلت فعلتها، وأصابت إحدى الرصاصات نافذة الغرفة واخترقتها لتستقر في الحائط المقابل.. عندها كان لا بد أن نغادر المكان مخافة اقتحامه خاصة وقد تناهى إلى أسماعنا أصوات الغاضبين يقتربون من المكان.. لم نكن لنتأكّد أن الجمع يسير نحونا وإلينا، ولكن من باب الحيطة رفعنا الاجتماع وأُمِرنا أن نلزم منازلنا في انتظار التعليمات.

خرجنا مسرعين، كلّ في اتجاه بيته.. خرجنا فُرادى، وكلّ في اتجاه مغاير، حتى لا نلفت الانتباه.. غير أنني وخلافا لبقية المناضلين، وجدتُ في بيتي حريقا.. تمنيتُ لو قُتلتُ برصاصة قناص قبل أن تطأ قدمي باب المنزل.

تمنيت لو وقعتُ بين الأيادي الغاضبة لتنهشني النقمة والفوضى. وتسعد الجماهير الغاضبة بانتصارها على النظام الآيل للسقوط.

حينها سأصيح صيحة القتيل، وأنا أمسك بجرحي وأهوي ببطء كتمثال على الرصيف.. أظل أضغط على الجرح، والدماء تنبع حارة من بين أصابعي.. تسيل بسرعة نحو الفراغات

المحفورة في مكعبات الرصيف.. تظل الدماء تسيل فوق الرصيف ببطء ساخن، ثمّ تنحدر إلى الطريق.. تظلّ تسيل حتى تعبره خائفة.. تمرّ سيارة عجلى، فتدهسه ليلفظ أنفاسه بين قطرات الأسفلت المحنط.

لكن هذا لم يحصل.. لم تصبني رصاصة قناص، ولم أسقط جريحا أو قتيلا، ولم تدهس سيارة عجلى دمي الممدد على الأسفلت.. ما حصل أنّ طعنة عوض الرصاصة أصابتْ أمّي، وأنها هي من سقطت تتخبّط في دمائها، دون أن يسيل الدم فوق السرير.. ظل الدم ينزف وظلّت الوسائد والأغطية تمتصّ الدم ولا تشبع.

الآن وأنا ممدّد على قارعة الطريق، وأمي هناك ممدّدة على سريرها. لا شيء يجمعنا عدا الجريمة.

والدي أكله البحر بعد أن استهلكته المومسات والحانات، وأمي نهش لحمها شيخ متصابي، وانتهت إلى ما انتهت إليه.

إذن ما مصيري أنا؟ إلى أين أذهب؟ كيف سأقضي ما تبقى من حياتي؟ كانت زانية بنت زانية.. لكنها أمي. لم تهتم لأمري وتركت العنان لشهواتها وغرائزها...

كان أبي سكيرا، هذا صحيح. وكان لا يتوانى عن أن يصرّح بمعاشرته للمومسات ونساء الأرصفة المتمعشات بقوت البحارة المنهكين. " بعد كلّ رحلة صيد أعود من الموت إلى الحياة.. هل تستكثرون عليّ مجرّد مومس" كثيرا ما يردّد هذا الكلام، بعد أن تمطره أمي بوابل من الأسئلة والاستفسارات عن أمواله التي ينفقها دون حساب، وعن الكلام الذي يقال في شأنه حول علاقاته العديدة بنساء الشوارع والفاسدات.

مع ذلك كان والدي يترك ما به يسدد ديونه وينفق عليّ وعلى أمي، مع ذلك بدأت الخلافات تشبّ في البيت كحريق، مع كثرة غيابات والدي وكثرة نسائه.. صحيح أنها إمرأة ولها الحق في أن تشبع حاجاتها، ولكن أن يصل بها الأمر إلى أن تخون والدي فغي قبره، فهذا غير مقبول. لو طلبت منّي أن تتزوّج لزوّجتها، فأمي ما زالت إمرأة شابة وجميلة ومحل أنظار الطامعين... حقها في الزواج مسألة شرعية.. نعم مسألة شرعية. ولكن أن تخون.. أن تخون.. هذا غير مقبول. ومع من؟ مع الشيخ علي؟؟؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.

ها أنا الآن ملقى كجثّة سقطت في حرب خاسرة ونهشتها الكلاب.

الشيخ علي الكلب، طعنني في الظهر غرس فيّ سكينا كبيرا.. غرسه في شرفي بإحكام، وقد كنتُ أعتبره قدوتي.. أحترمه وأجلّه كوالدي الذي لم أره.. والدي الذي مات غرقا وتركني ابن سبع سنوات، لا أفقه شيئا.. ذلك العمر يكفي ليتبيّن الطفل وجه والده، يجب أن تكون صورة والده محفورة في الذاكرة، لكن والدي الذي كان يغيب كثيرا، ولا يأتي إلا نادرا. وحتى إذا عاد

يأتي ليلا ويظل نائما لمدّة طويلة، كنت أخالها فاقت الشهر. يفيق من سكره ـ كما تقول أمي ـ ليخرج إلى المقهى أو الحانة، ويعود ليلا كعادته مترنحا ثملا لينام من جديد.

الخميس الأسود الذي أفقت فيه من نومي، كانت أصوات النواح والنحيب والنديب تشقّ جدران المنزل، وتخرج إلى الحي لتنتشر فيه كصدى صوت آت من بئر.. حالة من الفوضى.. نساء ورجال يدخلون ويخرجون، وأنا شارد لا أفهم ما الذي يحصل، ولم أستوعب حينها أن والدي مات.. وما معنى الموت في تلك السن؟

كانت أمّي ملقاة وسط المنزل تولول بصوت عال وبعض النسوة يمسكن بها لتهدئتها.

حين كبرتُ، عرفتُ لماذا لم يأت الرجال بالنعش، كما يحصل مع أي ميّت، حيث يضعونه أمام منزله، وبعد حضور أغلب الأقارب من الأبناء والإخوة والأعمام والأخوال، وقبل صلاة الظهر أو العصر بقليل، يُدخلون النعش إلى البيت الذي يسجى فيه الميت، ويضعونه فوقه ثم يخرجونه وسط نحيب ونديب وصراخ.. لم يُخرجوا أبي من البيت بعد تغسيله وتكفينه. فهمت بعدها أنّ من ابتلعه البحر، سيظل البحر قبره وكفنه وغسله.. كنتُ كثيرا ما أتوجّه إلى الشاطئ لأقرأ الفاتحة على روحه.

أبي ليس كغيره، لا قبر له نزوره ونقرأ الفاتحة على روحه.. أبي مسجّى في أكبر مقبرة عرفتها البشرية.. هو البحر. البحر بعظمته وشدّته وكرمه وملحه أيضا..

لذلك منذ وعيتُ، لم أعد آكل السمك لا مشويا ولا مطبوخا.. كلّ سمكة أراها أتخيّل أنها تلك السمكة قضمت إحدى أصابع والدي أو نهشت جسده أو أطرافه..

في إحدى ليالي الشتاء البارد، كنت أقف على الشاطئ أمدّ بصري إلى البحر الهائج، أتأمّل موجه العالي وزبده المتطاير على الشاطئ يكسر الموج صمت المكان، ويمرّ على الصخر الصلد، يدخل في تجاويفه فيحدث موسيقى متعددة الأصوات.

بدأت قطرات المطر تُحدث دوائر فوق سطح الموج الغاضب، فيبتلعها ويحملها إلى الشاطئ. واصل المطر هطوله، فأصابتني قشعريرة، فهمت منها أن والدي في تلك اللحظة ربما يشعر بنفس ذلك الإحساس.. يشعر بالبرد والخوف.. خلعتُ معطفي وألقيته إلى والدي في البحر ليساعده على اتقاء البرد القارس.

لا أعرف لماذا يخطر ببالي أن أزور البحر كلما هطلت الأمطار. ولا أعرف أيضا لماذا ألقي للبحر بمعطفي، وأعود عاريا منّي.

واصل المطر هطوله، وأنا ما زلتُ ملقى على ظهري فوق رصيف في الشارع الرئيس للمدينة الخالية من المارة.. في ظل حالة من الخوف والهدوء الحذر.

تناهت إلى سمعي بعض طلقات الرصاص المتقطّع، وتغيّرت رائحة العجلات المطاطية المحترقة بفعل المطر.. لملمت جسدي وأطلقته بهدوء وانكسار في اتجاه اللامكان.

يمشي حاتم منكسرا بهدوء، بعد أن ترك سكّينه ملقى على الرصيف.. اقترب من النهج المؤدي إلى مؤسسات حكومية، حيث تناهى إلى سمعه لغط وضجيج وهتاف.. رأى عن بُعد، بعض الناس يركضون في اتجاهات مختلفة. ورأى النار من بعيد تلتهم بناية المحكمة الابتدائية.. وبعض الناس يحملون أغراضا وحواسيب وأشياء أخرى نَهَبوها من مقر المحكمة.. بعضها وثائق في صناديق أرشيف لا أحد يعرف محتواها وقيمتها غير حاملها.

ظل حاتم واجِما لا يعرف هل أنّ مناضلي حزبه هم من نفّذوا الأمر بتلك السرعة، أم هي أعمال منفردة لفوضويين ومفسدين ولصوص.

لحظتها قرّر أن يتوجّه إلى حانوت الشيخ علي ليحرقه بدوره انتقاما منه على فعلته تلك.. هذا ما يستطيع فعله الآن على الأقلّ.. تحسس جيوبه بحثا عن ولاعة، فلم يجدها.. بحث في كل مكان في ثيابه، فعثر عليها في علبة السجائر. تحسّسها، ثم أمسك بها ضاغطا عليها، كأنه يمسك بمسدس، ثم قربها من وجهه أكثر.. تأكّد من أنها تعمل كعادتها، وأنها لن تخذله عندما يريد إشعال ذلك القن.. حانوت الحاج علي.

"سأكسر ذلك الباب وسأجد داخل الحانوت ما به أستعين على إحراق ذلك القنّ من أوراق وصحف وعلب وصناديق من ورق.. وسأحرق كبده على رزقه، كما أحرق كبدي. هذا لا يكفي، لكن هذا ما أستطيع فعله".

حين أدرك المكان، كان الحانوت يحترق.. أتت النار على كل شيء.. تنبعث النار من الباب ومن النوافذ، فلا مجال لمحاولة إطفائها.. ترتفع النار فترسم خيالات كأشباح في محيط الحانوت، ولا أحد هناك.. الكل مختبئ في انتظار الآتي المخيف.

أما الخفافيش التي تراها في الظلام، فهي من صنع الآني والراهن.. فإما لصوص أو فوضويون أو مندسّون.. هم صنيعة هذه الفوضى التي ألقت بهم دفعة واحدة إلى المشهد، يبحثون عن عالم آخر مغاير، أو هم يدافعون عن الراهن، أو يريدون الإبقاء على الفوضى.

بقي حاتم واقفا يراقب من بعيد، تضيء النار وجهه وتلفحه الحرارة القادمة من اللهيب. ابتسم بمرارة، وتعمّق جرحه، لأنه لم يستطع أن يُشفي غليله حتى بحرق الحانوت. اقترب من الرصيف المقابل، وجلس يراقب ما ترسمه النار من خيالات وسواد على الجدران.. أشعل سيجارة وتماهى مع المشهد، وهو يضغط على الولاعة، يراقب رذاذا من ورق محترق يتطاير في الأرجاء. فيما قطرات الماء النازلة من السماء تحاول جاهدة أن تصل إلى الأرض قبل أن تحترق في الهواء على بعد بعض الأمتار من الأرض.. قطرات بعضها يتبخّر مباشرة فور ملامسته جدران الحانوت أو الإسمنت القريب منه.

صورة سريالية تتلاقى فيها النار والماء في ليل يخبئ بين جنباته مصيرا لا أحد يتوقّع سماته أو ملامحه.

(13)

ثلاثة أشهر كانت كافية، لأن يسْتأنس الشيخ علي بمكانه الجديد. في مدينة القيروان، داخل أسوار المدينة العتيقة، حيث تعبق رائحة التاريخ، خارجة من جدران رماديّة وحجارة ناتئة.. تكاد ترى على الأرض سنابك خيلهم محفورة في الرخام. أو تسمع أصوات الفاتحين الأوائل وهم ينادون "الله أكبر"، رافعين راياتهم السوداء فوق خيولهم.

.. تكفي تلك الأشهر الثلاثة ليتعوّد الشيخ علي على الحوانيت والأزقة الضيقة ومداخل الجامع الكبير.. باعة الحلويات والمقروض يساعدون المكان على أن يشكل مشهدية تراتبية تتماشى مع تاريخ مدينة القيروان.. "البلاد تغيّرت"، قالها له أكثر من واحد.. "أحداث البلاد غيّرت تفاصيل المدينة".. قالها له الشيخ عبد الفتاح وهما يجلسان في المقهى الصغير القريب من الجامع الكبير، وهما ينتظران آذان صلاة المغرب.

البلاد لم تعد هي البلاد، منذ الأحداث التي إجتاحتها بعد أن أحرق ذلك الشاب نفسه أمام الجميع في الساحة العامة.. دخلت البلاد في فوضى، لم يستطع النظام أن يسيطر على الأحداث، ولم يستطع كعادته أن يسيطر على الجماهير الغاضبة. تلك الجماهير التي رفعت شعارات الانتفاضة على الظلم والقهر والمحسوبية..

الأحداث التي شهدتها البلاد رفّعت من نسبة الجرائم والسرقات والسطو والاعتداءات على الممتلكات الخاصة والعامة. لهذا أفلس البعض وأغلق آخرون حوانيتهم. بل إن أغلب التجار شوّهوا واجهات حوانيتهم بأبواب حديدية دخيلة على معمار المدينة مخافة السطو على ممتلكاتهم. بل ثمّة من بنى جدارا من الإسمنت أمام باب الحانوت، في انتظار أن تعود الأمور إلى نصابها.

مع ذلك فالشيخ علي ارتاح داخل المدينة العتيقة، ووجد من يثق بهم ويمدون له المساعدة.. مكّنوه من بيت صغير وحانوت لبيع الكتب الدينية المختلفة، بعضها وافد على البلاد من جهات خارجية متعددة.

يفتح الشيخ علي حانوته كل صباح بعد صلاة الصبح.. يرى النادل الحانوت مفتوحا، فيحمل إلى الشيخ علي قهوته.

ـ صباح الخير يا شيخ.. تفضل قهوتك

ـ بارك الله فيك يا بني.. جازاك الله كل خير

ويمدّ للنادل ثمن القهوة.. يسحب كرسيا، يضعه أمام الحانوت وطاولة صغيرة ليرتب عليها القهوة وكأس الماء. ويجلس يترشف قهوته، وبيده اليمنى سبحته الزرقاء ذات اللون الكهرمانيّ المشع في الظلام.

ـ سبحان ربي العظيم.. سبحان ربي العظيم

عندما يكمل قهوته يسحب من أحد الرفوف مصحفا، ويشرع في قراءة القرآن بصوت خافت لا يكاد يُسمعُ، بعد أن يرتّب نظارته ويدفع بالكرسي الصغير الذي أمامه إلى جهة الحائط حتى يأتي النادل ليرفع فنجانه الفارغ.

يعيد الشيخ علي نفس البرنامج مساء بعد الغداء ولكنه يستعيض عن القهوة بكأس شاي ويستعيض عن المصحف بأحد الصحيحين أو أحد كتب الفقه.

هو مرتاح البال، وفي أمان من اللصوص والفوضويين. والفضل يعود إلى الشيخ عبد الفتاح الذي أرسل له المدد في آخر لحظة، بعد أن هجم عليه بعض الفوضويين واللصوص، يقودهم حاتم ولد حبيبة، وأحرقوا بيته بما فيه، بعد أن خرج منه هاربا، وقبل أن يخلعوا باب المنزل ويعيثون فيه فسادا ثم يحرقوه بما فيه.

لن ينسى تلك الليلة التي قضاها داخل المسجد بلباس النوم الذي خرج به.. "الحمد لله أني أكتشفت أن جهاز الهاتف الجوال كان في جيبي، فكان لا بدّ أن أتصل بالشيخ عبد الفتاح لأعلمه بما حصل" قال محادثا نفسه.

أرسل إليه الشيخ عبد الفتاح سيارة أقلّته إلى القيروان، رغم حالة الفوضى التي تعيشها البلاد، وحالة الطوارئ، ومخاطر الطريق.

تحسست جيوبي، فحمدت الله أنها معي.. نعم كانت هنا في أحد جيوبي الداخلية. لم أفقدها أثناء هروبي من المنزل قبل حرقه. وحتى وأنا أتسلّق جدار المنزل الخلفيّ، لم تسقط مثلما سقطت ساعة الجيب، آخر ما بقي لي من عمّي. أنا قلت عمّي ولكن الأصحّ أن أقول أبي، لأنه كان أهم من والدي الذي أنا من صلبه.. عمي الذي ربّاني ودرّسني وحماني حتى من أبنائه، وهو الذي كان يحاول أن يحمي أمي من ذلك النذل أبي الذي هزمه وأمكن له أن يتسبّب في وفاتها غرقا في بئر.

تحسستها جيدا ثم سحبتها كمن أنقذ روحه من الغرق، حين لمست أصابعي وجهها وهي في جيبي. سحبت الصورة من جيبي الداخليّ وتأملت فيها مليّا قبل أن تسقط دمعة هاربة من إحدى المآقي. مسحت على وجه الصورة، أو على وجه أمي.. لا أدري، ولكنني كانت تشتعل في داخلي مشاعر متضاربة ومختلطة، حتى كدت أن أختنق بها.

أطلقت زفرة طويلة، لنجاة الصورة من الحرق، ثم أعدتها إلى جيبي الداخليّ، دون أن أهتمّ كثيرا إلى أنني ما زلت بملابسي الداخلية.

في حقيقة أيضا وللتاريخ كان فرحي مضاعفا حين إكتشفت أنني سجّلت رقم الشيخ عبد الفتاح في جهاز الهاتف، لأن قناعتي كبيرة لحظتها أن لا أحد بإمكانه أن ينقذني عداه.

الغريب أنه أثناء تنقلي إلى القيروان مع من أرسلهم الشيخ عبد الفتاح، اكتشفت أن هؤلاء يحملون أسلحة.. نعم أسلحة، للمرة الأولى أرى سلاحا حقيقيا. كانوا يحملون مسدسات وسلاح كلاشينكوف. والحمد لله أن الرحلة من قصور الساف إلى القيروان مرّت بسلام، ولم يداهمنا أيّ خطر، رغم أننا نسمع من حين إلى آخر طلقات رصاص متقطع، أو نرى النيران تشتعل في هذه البناية أو ذلك المصنع أو تلك المؤسسة الحكومية.

لم أستطع أن أصطحب معي ولو قطعة قماش.. كلّ شيء أكلته النيران.. حرقوا الحانوت والبيت، وقتلوا حبيبة، وبقيتُ عاريا تماما، إلا من جراح لم تلتئم. من طفولة الاغتصاب إلى شيخوخة التشرّد مرورا بشباب اليتم.

حاولت أن أقنع عبد الفتاح بأن يمرّ بي ولو لحظات إلى بيتي المحترق، لأرى ما فعلته النار فيه.. لأرى ما الذي احترق من أحلامي وما تبقى. أنا قلت أحلامي..هههههه أيّ أحلام هذه التي خطرت ببالي؟ أردت ربما أن أقول لعبد الفتاح أن يمرّ بي على بيتي المحترق لأرى ما تبقّى من الجراح التي ظلّت لسنوات محفورة على جدران البيت، وعلى خشب بابه المذبوح. خشب ربّما أتوا به من نفس الغابة التي كانت شاهدة على لحظة ذبحي على يد ذلك الوحش في يوم قائظ، لم يقدر فيه الطير حتى على التحليق.

قلت حاولتُ إقناع عبد الفتاح، ولكنه كان حذرا ومرتبكا، وكان يريد إكمال مهمته المستعجلة في أقرب وقت. الوضع خطير وحالة البلاد ليست آمنة، لهذا أقنعني بأن لا فائدة في زيارة البيت، لأن الماضي لا نحتاجه الآن ـ كما قال.

وأردف وهو يدفعني دفعا إلى داخل الشاحنة، المهم في هذه اللحظة التاريخية، هو المستقبل..

لحظتها عادت بي الذاكرة، إلى بيتي الذي احرقوه، وهم يصرخون كالمجانين "الله أكبر". لم أجد أي علاقة بين فعل الحرقن ورفع شعار " الله أكبر" عدا الغباء والجهل والنقمة. حين قفزت من الجدار إلى الزقاق الجانبيّ كنت أفكّر فقط في النجاة من المذبحة. كانت اللحظة تفتح الأبواب على كل الاحتمالات. فأن يذبحوك أو يصلبوك أو يمثلوا بجثتك.. فهذا لا يتناقض مع المسار الثوري لتلك الشرذمة من اللصوص التي خرجت من الأحياء المهمشة وهربت من السجون، بعد اندلاع الحرائق وفتح الأبواب على المجهول، دعما لمؤامرات وخيانات داخليّة وخارجية.

ظللت أركض في ذلك الزقاق الطويل بلباس النوم، إلى أن وصلت إلى منتهاه. وقفت لاهثا يصحبني يقيني أن لا أحد استطاع تعقّب خطواتي. التفتت جهة المنزل، فهالني ما تصاعد من نيران ودخان من منزلي المتداعي. الأوباش.. لو تركوه وحيدا لسقط من تلقاء نفسه، فهو لا يقدر على أن الصمود أكثر في وجه الزمن. كان سيسقط حتما دون تلك النيران وذلك الحقد المتنامي.

في المدينة العتيقة، الأيام رتيبة، كما كانت في مدينتي الأمّ، أراوح بين المسجد وحانوت بيع الكتب الدينية، ولا أدخل المقهى إلا نادرا بطلب من أحد الإخوة للتحادث في مسألة ما، وهذا ما ساعدني على أن أقطع مع عادة التدخين، بعد نصائح الشيخ نور الدين.

في البداية لم أكن أعرف نوع الكتب ولا مصدرها.. تقف سيارة خارج الأسواق القديمة، ويحمل لي شاب صناديق الكتب، يلقيها أمام الحانوت ويغادر. أقوم بإفراغها وترتيبها على الرفوف، وأقوم لاحقا ببيعها للزبائن.. هم أنفسهم يأتون من حين إلى آخر، وفي بعض الأحيان يُطلب مني كميّة كبيرة من العناوين، أتّصل بالمزوّد ليرسلها في أسرع وقت ممكن.

أحيانا يأتيني المزود بصندوق صغير محكم الغلق، ويقول أنه مخصص للشيخ عبد الفتاح، فأحمله كما هو دون أن أفتحه، وأسلمه إلى صاحبه، دون أن أسأل عن محتواه.. ولو أني كنت أعتقد أنها كتب ممنوعة، لا يريد الشيخ أن يعلم بها أحد غيره.

هكذا كنت محبا لهذه المهنة، دون أن أسأل أو أستفسر عن وضع ما، أو مسألة غير واضحة. إذا أتتني المعلومة أخذتها، وإذا لم تأت اكتفيت بما أعرف ولا أسأل.

أما الأرباح فكنت أتقاسمها مع الشيخ عبد الفتاح. لكن بعد شهرين أو أكثر بقليل، جعلوني قريبا منهم أكثر، وصرت على علم بتلك الكتب وعناوينها ومحتواها وإلى من ترسل.

يفتح الشيخ علي الصناديق الورقية الوافدة و الملأى بالكتب، ويسحب من داخلها كتابا أو أكثر، يلفه في جريدة، ويعود به إلى البيت. ثم يتمّ توزيع الكتب إلى أشخاص بعينهم، بعضهم نرسل إليه الكتب عبر وسيط، وبعضهم يرسلون من يتسلمها.

ولكنني أيضا إكتشفت أنّ صندوقا كان محشوا بأسلحة خفيفة وخراطيش ملفوفة بإحكام ومحشوة بين الكتب. صدمت لأوّل مرّة ولكنني لم أسأل.. لم أسأل من أرسلها وإلى من سترسل. ولكن الشيخ عبد الفتاح قرأ حيرتي في نظراتي، وأوحى لي فيما معناه، أن الموضوع ستفهمه لاحقا.

كنت على علم بشبكة العلاقات التي ينسجها الشيخان عبد الفتاح و نور الدين، مع قيادات وأطراف عديدة تونسية وأجنبية. الغرفة الوحيدة في الطابق الأول من المنزل كانت شاهدة على عقد لقاءات عديدة، ناقشوا فيها وضع البلاد وحالة الفوضى الخلاقة التي لا بدّ من استثمارها من أجل أمة الإسلام. مع ذلك كنت على علم أن بعض المسائل لا يُسمح لي بمناقشتها، بل لا أعلمها أصلا.

في أحد أيام الجمعة المباركة، نبّهني الشيخ عبد الفتاح أننا سنجتمع لأمر جلل. أنا وهو والشيخ نور الدين، وسيكون بيننا ضيف لننظر في مسألة مهمة.

لم تكن تلك الليلة عادية، كانت ثقيلة وحزينة منذ انتهائنا من صلاة الجمعة.. كنت مرتبكا أنتظر هذا الضيف، وأنتظر أيضا الخطوة الموالية التي سنخطوها.

حين دخلتُ المنزل ذي الغرفة الوحيدة في الطابق الأول، كان الشيخان عبد الفتاح ونور الدين يجلسان على زربية فرشت أرضا، وثمة رائحة بخور وعطور.. فوجئت بوجود شاب في الثلاثين من عمره، يجلس متربعا.. شاب نحيف.. له أنف مذبب ولحية خفيفة لا تكاد تغطي كامل وجهه.. كان يمسك بالمصحف بيديه، محاولا أن يكون في حالة تركيز، عرفت ذلك من قسمات وجهه. يبدو ثابتا ومتزنا، رغم مسحة الخوف التي رأيتها غشاوة على عينيه،

ـ السلام عليكم.. قلتُ

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. ردّ الجميع

دخلتُ بعد أن تكفل الشيخ عبد الفتاح بفتح الباب، وأغلقه ورائي بحذر، بعد أن أطلّ من أعلى على درجات السلّم التي ارتقيتها بثقل، علّ أحدهم كان يتبعني.

جلستُ حذوهم على نفس الزربية المفروشة.

ـ مرحبا بك شيخ علي.. قال الشيخ نور الدين

ـ أهلا وسهلا بكم

ـ يا شيخ علي، علينا أن نوضّح لك المسألة ونضعك في صلب الموضوع.

ـ تفضل يا شيخ

ـ هذا الشاب أبو سيف التونسي، من إخوتنا في الإسلام إن شاء الله

ـ مرحبا بك يا بنيّ

قاطعه الشيخ نورالدين، بعد أن ظهرت علامات استغراب وتساؤلات عديدة على وجه الشيخ علي.

ـ أنظر يا شيخ علي، إن الله فتحها علينا بالإسلام، وشرّفنا بأن نكون في زمن فيه بإذن الله الأحد الأحد، توحيد بلاد الشام، وستكون سوريا "ديار التمكين" لتحقيق هذه الأمنية الأسمى.

قاطعه الشيخ عبد الفتاح، كأنه يريد أن يُدلي بدلوه في الموضوع، لمزيد دعم أفكار الشيخ نور الدين.

ـ .. وهكذا يا شيخ علي، يبدأ الجهاد من حربنا على الطاغية في دمشق.. ألم يقل رسول الله صل الله عليه وسلّم

ـ (قاطعه الجميع.. عليه الصلاة والسلام)

وأكمل يقول:

ـ .. يقول رسولنا الكريم "عليكم بالشام"

لهذا يا إخوتي، سنقوم بعون الله وبحمده، بتسفير المجاهد بإذن الله أبو سيف التونسي إلى سوريا، ليلتحق بإخوتنا في أرض الجهاد.. الأرض المباركة.

استوعب الشيخ علي الدرس الذي بسطوه عليه منذ شهر، وأقنعوه بأن ينشر الإسلام ويدافع عن الخلافة، وعلّق:

ـ نعم.. لا بدّ من النفير.. حان وقت النفير أيها الإخوان

ـ بارك الله فيك يا شيخ علي.. علّق الشيخ نور الدين، وطبطب على كتف الشاب، موجّها بصره إلى باب الغرفة.

ـ في انتظار أن يصل الشيخ خليفة.. أتمنى لك يا بنيّ التوفيق والسداد، وستنال إن شاء الله الشهادة..

الشيخ خليفة هو الذي سيتكفل بنقلك إلى المكان الذي ستسفّر منه إلى غدامس، ثم الزاوية في ليبيا، ومنها إلى اسطنبول حيث ستجد من سيستقبلك ليقلّك مع الإخوان هناك إلى الحدود السورية. طبعا ليس هو نفسه من سيسفّرك، بل سيدفع بك إلى بعض الإخوة ليتكفلوا بالأمر، وستكون بأمان إن شاء الله.

رفع الشاب رأسه بحياء، وقال بصوت خافت

ـ إن شاء الله.. إن شاء الله.. أنا لا أريد إلا الشهادة.

قالها بحماس، ثمّ تماهى مع خياله الذي طار به إلى قريته الجبلية في أحد أرياف الشمال الغربيّ حيث لا ماء ولا كهرباء وربما لا أكسيجان. أمه العجوز التي تقطع عشرات الأميال كل صباح لجلب الماء على ظهرها بعد أن مات حمارهم الوحيد ربما نقمة من واقع مرير صلد كذلك الجبل الذي يعيشون فيه.. أمه تلك ظلت تحمي ذلك الكوخ مع كلابها ودجاجاتها ومعزاتها.. ككل أمهات تلك القرية الجبلية المعلقة كخصية في عضو شيخ عجوز. أما والده العجوز فقد ترهّل وفقد بصره بسبب داء الرمد وعدم وجود مستوصف بالجهة.. أما إخوته الأربعة فوجودهم كعدمه في بيئة قاحلة صمّاء جوفاء لا تصلح للحياة.. بل أن أحد إخوته مات برصاصة طائشة

في مساء كان فيه عائدا من المقهى.. قلت من المقهى، ولم أقل من ثكنة أو قاعدة عسكرية.. مات برصاصة قنّاص.. آه نعم من رصاصة قناص قادم من الغياب أو من الظلام.

سمع أبو سيف التونسي طرقا خفيفا على الباب، فارتجّت الأفكار في ذهنه ونفض تلك الصور الرمادية التي كانت تُعرض على سبّورة سوداء..

نهض الشيخ نور الدين ليفتح الباب بحذر، إنه الشيخ خليفة

ـ السلام عليكم..

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. رد الحضور

سلّم الشيخ خليفة على من في البيت، وتقدّم ببطء بخطوات ثقيلة.. وهو يتجه إلى وسط الغرفة، ليتربّع مع الجماعة على زربية فُرشت على الأرض.

الشيخ خليفة أكبر سنا من الجميع.. قارب الثمانين من عمره، وهو يسير منحنيا يوشك رأسه أن يغلبه، فيسقط من بين كتفيه.. لحية بيضاء تنسدل على صدره.. جزء منها ينسدل عليه لحاف يغطّي رأسه.. سار ببطء يستعين بيد الشيخ نور الدين، حتى وصل إلى المكان الذي تركوه له شاغرا. انحنى ببطء حتى استوى قاعدا على الزربية.. ما زال جزء من وجهه تغطيه ظلمة عكسها اللحاف الذي يغطي وجهه.

ظلّ الشيخ نور الدين واقفا، كأنه يخطب فيهم، وهو في الحقيقة ينتظر أن يتقدّم الشيخ خليفة إلى آخر الغرفة ليأخذ مكانه بين الحاضرين.

ـ أقدّم لكم الشيخ خليفة، أحد أعلامنا وشيوخنا، ذو فضل وعلم.. يسعى جاهدا إلى إرضاء الله ونشر دعوة رسوله.

قال الشيخ خليفة وهو يبسط يده:

ـ تفضل يا شيخ نور الدين إجلس.. الحمد لله الذي كرّمنا بالإسلام، وأحْيانَا إلى حين هذه اللحظة التاريخية، لنعيش ساعة النفير إلى ديار "التمكين"، والتفت إلى الشيخ علي، وهو يسحب لحافه لينسدل على كتفيه.

ـ أهلا بك يا شيخ..

ـ الشيخ علي من أئمتنا الكرام.. قال الشيخ نور الدين.

انتبه الشيخ علي إلى الصوت جيدا.. وقد اخترق طبلة أذنه إختراقا.. ظل الصوت يخترق كل أجهزة الجسم والمدارك والأفكار وغشاء اللاوعي، وطبقات الوعي المتراكمة.. حتى استقرّ في ركن مظلم بداخله.

سحب الشيخ علي نفسا عميقا، وأرسل بصره إلى جهة مظلمة بداخله.. ظل يمسح على بلّور تغطيه غشاوة، ويطل ببصره الضعيف علّه يرى شيئا ما.

ضاعف من حركة يده على البلور ليزيل الغمام.. زاد في الحركة بيده الأخرى، ثم بيديه، ثم بوجهه.. ما زال الشيخ خليفة يتكلم، ولكن الشيخ علي ما زال يمسح بلور الذاكرة، باحثا عن ذلك الصوت، دون جدوى.

ظل يحملق في وجه الشيخ خليفة، يدقق النظر في الملامح.. في العيون.. في الأنف.. في الذقن.. لا، لم تكن هناك لحية. لا، اللحية لم تكن موجودة، لا سوداء ولا بيضاء.. لم يكن يغطي رأسه، لكن الملامح هيّ.. يبدو أنها هي.

أغمض عينيه قليلا، وأرسل ذاكرته تفتّش في الملامح، وتقرنها بالصوت المختفي خلف البلور الأعمى.. آه إنه هو.. إنه هو نفسه، ذلك الوغد السكير، أذكر كلماته الممرغة بالخمر:

ـ هاك كبرت يا تَحْفون، يلزم نفرحو بيك.

تونس 2019